هناك في سمرقند

obeikandl.com

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
00972542263454
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

*

أسعد الأسعد
"هناك في سمرقند"
(رواية)

*

الطبعة الأولى (2012)
جميع الحقوق محفوظة

*

المونتاج والإخراج الفني:
الريشة

*

تصميم الغلاف الأمامي: شركة 2i للبرمجيات

*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

obeikandl.com

رواية

أسعد الأسعد

هناك في سمرقند

AL JUNDI
دار الجندي للنشر والتوزيع
PUBLISHING HOUSE

obeikandi.com

obeikandl.com

"قد يكون الغيب حلوًا

إنما الحاضر أحلى"

الهادي آدم

"التشبث بالواقع، هروب من الحلم"

أسعد الأسعد

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

على مقعد من خشب الفستق الفارسي القديم، يتحدث العامة في حواري سمرقند، إنَّ الأمير تيمور، كان أحضره معه من ضواحي مدينة الموصل، حيث ضريح النبي دانيال، ويردد أهل سمرقند إنَّ النبي دانيال كان يستريح عليه، ويجلس هناك ساعات طويلة للتأمل والتهجّد.

ألقى "علي شير" بجسده المنهك من عناء سفر طويل، متأملاً عمامة خضراء لا يمسّها إلا خادم الضريح "بختيار" من حين لآخر، ينفض الغبار عنها، ويعيدها إلى مكانها في الزاوية الجنوبية المقابلة لرأس الضريح، أما الضريح نفسه، فقد لف بقماش أخضر من حرير كان يعتني به أحد أشهر الخياطين في سوق الحرير، المحاذي لسور المدينة، قرب زقاق

obeikandl.com

الهال، ليس بعيدًا عن مقبرة شاه زند المتراصّة الأضرحة والقبور، تزينها غابة من القباب الزرقاء، حيث بُني أول ضريح بعد عشر سنوات من دخول المسلمين مدينة سمرقند، حين دخل قتيبة بن مسلم وادي فرغانة، وأخضع خوارزم، وقشقدرياه، وقرشيه، والمنطقة بأسرها لحكم الخليفة العباسي سنة (751) ميلادية.

بدأ زوَّار الضريح يقبّلونه وينسحبون، حتى كاد المكان يخلو من الزوّار إلا القليل. أما "إليشير"، وهو الاسم الذي اعتاد أهل سمرقند مناداته به، منذ استقر في المدينة، فقد لزم مقعده، وجلس منتظرًا خلوّ المكان من الزائرين.

تقدم "أليشير" من الضريح. التفت حوله، كأنما يتأكد من أنَّ أحدًا لم يعد في المكان. اقترب من عمامة النبي دانيال، وراح يهمس:

- جئتك من بلاد الرافدين، بل من أقصى شمال العراق، من الموصل يا مولاي. ذهبت إلى "شوش" في أقصى شمال غرب بلاد فارس، التي يسمونها اليوم إيران، لكنهم أرسلوني إلى الرملة في فلسطين، غير أنَّ أهل قرية دانيال قرب الرملة أرسلوني إليك، هنا في سمرقند. أعرف أنك راغب في السؤال عن سبب ترحالي، وسؤالي عنك في كل البلدان، وعن سرّ اهتمامي بأمرك. سأقول لك يا مولاي، سأقول...

جال ببصره المكان. مدَّ يده إلى جيبه حين تأكد من خلو المكان من الزائرين، وأخرج ورقة صغيرة، كأنها حجاب أو تعويذة، أو جزء من ورقة من كتاب قديم. كل ذلك وغيره لم يعد يهمه. جل ما يريده فك لغز هذه الورقة.

- مولاي، إنْ كان ما وجدته في الموصل صحيحًا، فإني أسألك: كيف طاوعك قلبك أن تسمح للأمير تيمور بدخول بغداد، واستباحة حواريها؟ حين جاءك ليلاً متخفيًّا بزي عربي، وتسلل إلى ضريحك في الموصل مستأذنًا بدخول بغداد، كما أشار عليه بعض معاونيه ومستشاريه، وحذروه من دخول بغداد من دون أن تأذن له.

كيف فعل تيمور ذلك، وهو الذي كان يعلم بما فعله التتار من قبله ببغداد ودمشق، وسائر بلاد المسلمين. كيف استجدى إذنًا من رجل مات قبل مئات السنين، يرقد لا حول له ولا قوة؟

تقول الأسطورة: إنَّ الأمير تيمور خبّأ الرقيّة في شق قريب، ودفعها إلى آخر الشق حتى لا يلحظها أحد فيلتقطها، وتقول الأسطورة أيضًا: إنَّ الأمير تيمور، تنكّر بزي عربي، وتسلل ليلاً إلى الضريح يستخيره لدخول بغداد، بعد أن حذره بعض معاونيه بألا يدخل بغداد دون طلب الأذن من دانيال. تردد في البداية، لكن ضعف الإنسان أدخل الرعب إلى قلبه،

فجاءه، وكان ما كان، ولو لم يفعل ذلك، كانت نهاية جيشه على أسوار بغداد ولم يدخلها أبدًا. أرعبته الفكرة. استأذن دانيال، فأذن له.

- كيف طاوعك قلبك وفعلتها، لماذا أذنت له؟

- لو كانت بغداد بأيدٍ أمينة ما كان لتيمور أن يدخلها. أنت تعرف حال بغداد قبل دخول تيمور، أيها العربي، فلماذا تلوم دانيال؟

التفت "أليشير" إلى ناحية الصوت. اعتدل في وقفته حين وقع نظره على خادم الضريح "بختيار" متقدمًا نحوه.

- أثرت اهتمامي منذ أن رأيتك جالسًا أمام الضريح. لم تبرح مكانك ساعات طويلة. قلت في نفسي: غريب أمر هذا الرجل. أنت لست سمرقنديًّا، وملامحك غريبة عن الوادي، فمن أين أنت أيها الفتى؟

- أنا من بلاد الرافدين يا سيدي.

- وما الذي أتى بك إلى ديارنا؟

- جئت باحثًا عن هذا الراقد هنا.

أشار إلى الضريح، وقد بدأ الدم يجري في عروقه، وترتفع نبرات صوته.

- وما لك عنده؟

- لي عنده جواب لسؤال، أظنك سمعتني أسأله.

obeikandi.com

تحرك "بختيار" نحو قدمي الضريح فلم يعد "أليشير" يسمعه. حدّق في الضريح الممتد على مسافة طويلة، وسأله "بختيار":

- وهل كان دانيال طويل القامة إلى هذا الحد؟

- تلك قصة طويلة.

- أُحب سماعها.

اعتدل "بختيار" في وقفته، تقدم نحو "إليشير"، وراح يقص عليه حكاية دانيال، التي اعتاد على سردها، حتى حفظها عن ظهر قلب.

كان ذلك في نهاية المائة السادسة قبل الميلاد، حين هاجم الملك الأشوري "نبوخذ نصر" مدينة القدس، فدمرّها، وأحرق كل ما فيها، ثم أخذ ساكنيها من اليهود سبايا إلى عاصمة بابل، وأخذ فيما أخذ، صبيًّا لم يتجاوز الرابعة من عمره، قيل إنَّ اسمه "دانيال"، وكان من عادة أهل بابل التسلّي بأسراهم، بأن يلقوا بهم في حفرة فيها أسد ولبؤة، وهذا ما فعلوه بـ"دانيال"، وقد فوجئ البابليون حين رأوا الأسدين يلعبان مع "دانيال"، ويتمسحان به، دون أن يمسّاه بأذى، فعرفوا أنه مقدّس. أخرجوه من الحفرة، وعاملوه باحترام وقدسيّة، وحين توفي دفن في الموصل، لكنَّ جثته لم تتحلل، وبقيت على حالها، حتى نقلها الفرس إلى مدينة "شوش"، وقد بقيت جثته هناك ثلاثمائة سنة لم تدفن، حيث كان

أهل "شوش"، الواقعة شمال بلاد فارس قريبًا من بحر قزوين، يتبرّكون به، بل ويستمطرون السماء بالجثة، التي إن أدخلوها توقف المطر، وإن عرضوها للشمس والهواء أمطرت، فاحتفظوا بها في قصر "هرمزان" قرب "تبريز"، وبقيت هناك (300) سنة إلى أن جاء رجل من بلاد فارس يدعى "حرقوس"، وأعلم بدوره أحد قادة المسلمين، الذي فتح تلك المنطقة من شمال العراق وبلاد فارس، وهو أبو موسى الأشعري، الذي استشار الخليفة عمر بن الخطاب، فأمر بدفن الجثة، لكن أبا موسى الأشعري، حفر (13) قبرًا، وأمر بدفن الجثة ليلاً في أحدها، حتى لا يعثر عليه أحد، وقد وجدوا فيما بعد إلى جوارها صفيحة من ذهب، ومخطوطة كُتبت بالآرامية القديمة، أما المخطوطة، فقد اختلف المؤمنون بأمرها، حيث نسبها كل إليه، لكنهم اتفقوا ثلاثتهم، على تقديسه، واستمر ذلك حتى اليوم.

هذا ما يفسر طول قبر دانيال في سمرقند، حيث أراد الأمير تيمور أن يكون قبر دانيال بطول ثلاثة عشر قبرًا، مثلما هو في الأصل، وقد درج أهل سمرقند على دفن موتاهم في قبور متعرجة وغير مستقيمة حتى اليوم، كي لا تصلها الوحوش والحيوانات الضالة المفترسة، أما خاتم دانيال، فقد أخذه أبو موسى الأشعري، حيث ورثه عنه ابنه أبو بردة،

ويقال، أيضًا، إنَّ تيمور وجد الخاتم في قبر دانيال حين نبشه، وحمله معه إلى سمرقند، وما زال في يده حتى مات، ويقال، أيضًا، أنَّه أمر بأن يدفن الخاتم معه، وحين جاءت بعثة حكومية بلشفية من موسكو، ونبشوا قبر تيمور محاولين نقله إلى موسكو، أصابهم الذعر، ولم يتمكنوا من انتزاع الخاتم من أصبع الأمير تيمور، لكنهم ذكَروا في تقاريرهم أنَّ الخاتم مصنوع من الفضة، وقد نقش عليه صورة رجل يحمل على كتفيه أسدين.

– من هو دانيال هذا؟ وما الذي أتى به إلى العراق؟ سأل العربي بختيار.

– كان ذلك قبل ميلاد السيد المسيح، وقبل الإسلام بألف سنة وأكثر.

– هل كان يهوديًّا، أم نصرانيًّا، أم مسلمًا؟

– كان رجلاً صالحًا، ولذا اعتبره كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين منهم، وأظنك رأيت الجميع هنا عند الضريح، كلهم جاؤوا يقدسونه، ويستخيرونه. اختلطت دعواتهم، وتمنياتهم، حتى أنك لم تعد تعرف من هذا، ومن ذاك.

– ما يهمني من كل ذلك يا سيدي، هذه الورقة التي وجدتها بين حجارة ضريح النبي دانيال في الموصل، وحين ذكر لي أحد الحجاج العائدين من مكة إلى ديارهم في خوارزم، أنَّ ضريح النبي دانيال موجود

في ظاهر سمرقند، وجدتها فرصة طيبة لمرافقتهم إلى هذه الديار، لعلّي أقضي مرادي، وأحقق غايتي...

- وما مرادك أيها العربي؟

- قلت لك، يا سيدي.

- أوَ تريدني أن أصدق أنك قطعت آلاف الأميال من أجل أن تسأل رجلاً قضى منذ آلاف السنين؟ قل لي أين تقيم؟

- اتخذت من أحد الأضرحة المنتشرة في مقبرة "شاه زند" ملاذاً ومسكنًا، بعيدًا عن عيون المتطفلين.

- بني، لقد فعلها تيمور، وانتهى الأمر.

- ودانيال؟ لماذا فعلها دانيال؟! وإن كان فعلها، وأذن لتيمور بدخول بغداد، فهو شريك له في ما حلَّ ببغداد وبلاد الرافدين.

- سمعت الجواب، فإن لم يكن لديك ما تسعى إليه في هذه البلاد، أنصحك بالرحيل، فأهل سمرقند لا يحبون الغرباء، منذ أن جاءها الإسكندر المقدوني غازيًا، لكنَّ مقاومة مملكتَي "الصغد" و"بكتيريا"، القريبتين من سمرقند، دفعته إلى السعي للزواج من "روكسانا"، ابنة ملك بكتيريا، المنحدرة من أصول فارسية، فانقلب البكتيريون، وتحالفوا مع الإسكندر، صهرهم الجديد، ما أدى إلى غلبتهم وانتصارهم على

obeikandi.com

الصغديين، وما زال أهل سمرقند يتحدثون عن "روكسانا"، وجمالها، وعن عجز الإسكندر، وعدم قدرته على معاشرتها، وبأنه لم يكن ينفع النساء، وكيف اندفع بجيشه، بعد ذلك، إلى "خوجاند" جنوبًا عبر وادي فرغانه، وحين حاول عبور جبال الهملايا من أطرافها الغربية نحو الهند، بدأت قواه تنهار، وجيشه يتفكك، وخيله بالنفوق، فاضطر إلى التراجع والانسحاب غربًا نحو الإسكندرية، ومن هناك إلى موطنه مقدونيا، لكنه مات في الطريق، وانهارت إمبراطوريته بعد أن أقعده المرض.

أما تيمور، فقصته لا تزال على لسان كل سمرقندي، بل على ألسنة أهل آسيا الوسطى، يرددونها، ويتناقلونها، وكلما أخذتنا السنون بعيدًا، تبدلت حكاياتنا، وانحرفت مساراتها، حتى اختلطت عليهم نهاياتها، وتشعبت تفاصيلها، وضاعت أصولها، ولا يزال أهل سمرقند يرددون حكايات لا يعرفون مصدرها، عن بعثة جاءت إلى مدينتهم لنبش قبر الأمير تيمور، بعد سيطرة البلاشفة على سمرقند، لكنهم لم ينجحوا، وعادوا من حيث أتوا، وحين قرر "ستالين" نبش قبر الأمير تيمور، ونقله إلى موسكو في العام (1941م)، أشار عليه بعض معاونيه إلى أن لا يفعل ذلك، إذ إنَّ حربًا عظمى سوف تنشب في اليوم التالي إذا فعل ذلك. لم يأخذ ستالين بنصيحتهم، وأرسل بعثة إلى سمرقند، نقلت رفات الأمير

تيمور يوم (21/ 6/ 1941م)، فاندلعت الحرب ضد الاتحاد السوفيتتي في اليوم التالي (22/ 6/ 1941م)، وقد بقي الرفات في موسكو ستة شهور، إلى أن أشار عليه بعض معاونيه إلى إعادة الرفات إلى سمرقند، وقد دارت به الطائرة، التي حملته في أجواء موسكو، قبل أن تتوجه إلى سمرقند، وما أن ابتعدت الطائرة حتى بدأ جيش النازيين بالتقهقر والتراجع عن حصار موسكو.

وأما أهل سمرقند، فما زالوا يتداولون أسطورة تتحدث عن جنكيز خان، جد الأمير تيمور، كيف أمر بدفن جثمانه في حفرة عميقة مع حصانه الذي مات معه، وأن يسيّروا ألف حصان فوق القبر حتى لا يتركوا أثرًا يُستدل به على مكانه، وقد فعل المغول ما طلبه جنكيز خان، بل إنَّ أهل سمرقند ما زالوا يؤمنون بأنَّ القيامة سوف تقوم، إذا عثر أحدهم على قبر جنكيز خان، ومعروف أنَّ أحدًا لم يعثر عليه حتى اليوم.

– لكلٍّ قيامته يا مولاي، فإن مات أحدهم جاء أجله، أو قل قامت قيامته.. قال علي شير.

– ألا تؤمن بالقيامة؟

– بلى، لكنني قد أختلف عنك، وعن الكثيرين غيرك، في تفسير شكلها.

– وما علاقة تيمور بالمغول وبجنكيز خان؟ فالأمير تيمور عاش في سمرقند، بينما عاش جنكيز خان في بلاد المغول.

– صحيح، لكن المغول وصلوا إلى بلاد الشام، وأقام جنكيز خان في دمشق، حيث انطلقت جيوشه من هناك لغزو بلاد المسلمين، وحين قرر غزو مصر، وكان حاكمها آنذاك المملوكي الظاهر بيبرس، استنهض المسلمين، وحشد جيشًا كبيرًا سار به نحو الشام لملاقاة جنكيز خان وجيشه، والتقى الجيشان عند موقع يدعى عين جالوت في ظاهر طبريا، حيث ألحق بيبرس الهزيمة بالمغول، كما أوقف زحف جنكيز خان، الذي اضطر إلى الهرب والتراجع نحو الشام، ومن هناك إلى بلاد المغول عبر أسيا الوسطى، وقد هربت معه القبائل المغولية التي كانت أقامت في البلاد التي خضعت للمغول، حيث استقر بعضها في المدن الواقعة على الطريق إلى منغوليا، وكان أن استقرت قبيلة تيمور في ظاهر سمرقند، وأقامت هناك في موقع يدعوه أهل سمرقند "أفروسياب". هناك ولد تيمور لعائلة مغولية فقيرة، وقد عُرِفَ بأنه كان أحد أحفاد المغول، حيث انشغل بالماشية ورعي الأغنام والعناية بها، كما عرف بفروسيته، وقاد العديد من الغزوات على القبائل الأخرى، حتى صارت تهابه القبائل، وتحسب له ألف حساب، لكن فقر عائلته، لم يساعده في تبوّء قيادة

وزعامة قبيلته، فقرر الزواج بامرأة ذات شأن، وعائلتها أكبر نفوذًا من عائلته، حتى وإن كانت أكبر منه سنًّا، فتزوج "بيبي خانم" الغنية والأكبر منه سنًّا، لكنها كانت تتمتع بذكاء وفطنة، ساعدته على التقدم، وشق طريقه نحو حروبه، وتوسيع مملكته، والتغلب على كل أعدائه، ومن شدة ذكائها، وحرصها عليه، اختارت له زوجاته، واهتمت بتربية أولاده، ورعايتهم، فقد كانت عاقرًا، ولم تنجب له أولادًا، لكنها ظلت الملكة، وصاحبة القرار في قصر تيمور، حتى أنها من دون زوجاته، كانت تخرج لاستقباله عند بوابة "أفروسياب" في ظاهر سمرقند، ترابط هناك أيامًا إلى حين عودته، حتى إذا انقشع غبار الخيل، وتبين لها تيمور، تقدمت نحو موكبه، لتكون أول المرحّبين بعودته، وهكذا بعد كل غزوة من غزواته، حتى لوّحتها الشمس فبدت كأنها "مولطية" الجذور والأصول.

- وأنت، ماذا تفعل هنا؟

- كبرت، فوجدت والدي هنا، وقد حدثني بأنَّ جدي، ومن قبله أجداده، كانوا هنا، إذ إنَّ الأمير تيمور أَوكل مهمة خدمة الضريح لعائلتنا، فتوارثناها أبًا عن جد منذ ذلك اليوم.

- رأيت النَّاس يتزاحمون أمام الضريح، فما سرّ ذلك؟

- النَّاس يا بني يبحثون عن مقدسات يلجؤون إليها عند ضعفهم، لعلها تمدّهم بالقوة، وتعينهم على مصائبهم، وما يحل بهم من ويلات.

- رأيت المؤمنين، على اختلاف مشاربهم، يتقاطرون على الضريح، فكيف اتفقوا على مقدس واحد؟

- النَّاس يخلقون أساطيرهم، ويلتفون حولها.

- وهل تؤمن بها وتصدقها؟

- إن كانت تُعين النَّاس على الخير، فسوف أكرس حياتي لخدمتها، إذ لا ضير في ذلك.

- أنت رجل صالح، يا سيدي.

- وأنت بذرة طيبة يا بني. اسمعْ نصيحتي، وعد من حيث أتيت. نبش القبور لا يخرج الأحياء.

- أنا لا أنبش القبور، وليس في نيتي أن أفعل، لكنني أبحث عن أسرارها.

- يرحل النَّاس ومعهم أسرارهم.

- بعضها لا يموت، يا سيدي.

- هل لي أن أسألك عن حيّ العرب في سمرقند؟

obeikandl.com

– ليس بعيدًا عن شاه زند. خذْ يمينك قبل أن تصل إلى "زقاق الأمير"، ستجد نفسك وسط الحيّ، لكنني أود أن أسألك عن سرّ اهتمامك بالعرب وحيّهم؟

– أبحث عن امرأة التقيتها في الموصل. أخبروني أنها من عرب سمرقند. جاء أهلها مع جيوش المسلمين الذين جاؤوا إلى المدينة فاتحين قبل مئات السنين، ومن ثم استوطنوها، وصاروا جزءًا من نسيج أهلها.

– وما اسم تلك الفتاة التي خطفت قلبك؟

– اسمها "ثريا" يا سيدي، ولو رأيتها لعذرتني...

– إذا دخلت حيّ العرب، وسألت عن ثريا، لن تعود من هناك حيًّا.

– أعرف ذلك، يا سيدي، ولهذا سألتك لعلك تساعدني في الوصول إليها.

– إنها ابنة شهبندر التجار، وأمّها "مليكة"، ابنة أمير بخارى. هرب والدها من بطش البلاشفة، عقب احتلالهم للمدينة، وقيل إنه أخذ معه عشرة جمال محملة بالذهب، وحصانه الأشهب، وعشرين من خَدمه وحاشيته، ونساءَه الثلاث، أما "مليكة"، فقد اختفت هي وأمها، وقيل إنَّ عربيًّا من الحيّ أخذها وخبّأها في الخابية أيامًا، حيث عاشت في كنف العائلة، ثم ما لبث أن زوّجها لابنه، وقيل إنها كانت تخبئ صفيحة من

obeikandl.com

ذهب، فكانت عونًا لزوجها، وسرّ نجاح تجارته وازدهارها حتى أصبح كبير التجار، بل وأهمهم، ليس في سمرقند وحسب، بل في بخارى، وقشقدرياه، وبلاد ما وراء النهرين "سيحون وجيحون"، أو كما يسميهما أهل تلك البلاد "أمردريا وسردريا"، حيث ينبع الأول من جبال ترمذ على حدود أفغانستان جنوبًا، بينما ينبع الثاني من جبال خوارزم، ينطلقان شمالاً، كلٌّ يحاول الوصول قبل الآخر، لكنهما يلتقيان ليصبا معًا في بحر الآرال شمالاً، وقد ذاع صيته حتى عمَّ تلك المناطق الشاسعة من بحر الآرال شمالاً حتى ترمذ جنوبًا.

عاشت ثريّا في كنف عائلتها، طفلة مدللة، يحيطها الجميع بالرعاية والاهتمام، فقد كانت وحيدة، إذ لم ترزق مليكة بغيرها، على الرغم من لجوئها إلى كل العلاجات والوصفات، حتى إنها لجأت إلى دانيال، لكنه خذلها، ولم تشفع لها كل العطايا والمكرمات التي دأبت على توزيعها لفقراء المدينة والمحتاجين، أما ثريا، فقد عاشت حياتها تنتظر الفرج، لعله يأتي ذات يوم، يخطفها على حصان أبيض، إلى بلاد بعيدة لا تعرفها، ولم تسمع بها من قبل، ولا تزال تنتظر فارسها، وأظن أنَّ انتظارها سيطول...

أطبق الليل، وانتشرت العتمة في المكان، لولا ضوء مصباح في الركن، وآخر على الضريح، وانعكاس ضوء القمر المتسلل خجلاً عبر باب المكان

المشرع. التفت الرجل كأنما أدرك أنَّ الوقت أدركهما، وأنَّ عليهما الانصراف قبل أن ينشر الفجر ضياءه.

تقدم بختيار من الباب ينظر إلى الباحة، لكنه توقف حين لم يجد أحدًا في المكان، قبل أن يتقدم نحو شجرة الفستق، التي يردد أهل سمرقند أنَّ الأمير تيمور أحضرها معه يوم عاد إلى عاصمته سمرقند، بعد أن انتهى من غزو بلاد فارس والرافدين، مصطحبًا معه بعضًا من عظام دانيال، حيث بنى قبرًا بطول (18) مترًا، وأخفى العظام في جانب منه، وحرص على أن لا يراه أحد، كما زرع شجرة الفستق أمام الضريح، وهي التي لا تزال حتى اليوم منتصبة أمام الضريح، تتدلى من أغصانها القليلة مناديل المستجيرين بها، لعل أمنياتهم تتحقق، وأمنياتهم تجد طريقها إلى الخلاص.

مدَّ علي شير يده إلى جيبه. سحب منديله، وتوجه نحو شجرة الفستق. مسح عرقه المتصبب، وراح يبحث عن مكان لمنديله وسط زحمة المناديل، التي كادت تغطي أغصان الشجرة، بعد أن اختلطت بأوراقها القليلة الباقية.

وقف "أليشير" أمام غصن رآه مناسبًا لربط منديله. عقد منديله، وشدّه حتى كاد ينقطع، كأنما يخشى عليه من السقوط، فتسقط تمنياته معه، وتذهب أحلامه أدراج الرياح.

obeikandi.com

- ماذا تمنيت أيها العربي؟

- كان والدي يردّد حديثًا لا أزال أحفظه: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان...

هزَّ بختيار رأسه وهو يردد:

- فهمت.. فهمت.. تعال أيها العربي نجلس في الخلاء.. لم يبق لصلاة الفجر إلا القليل.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

كانت العتمة تلمّ سترها، وقد غلبها ضياء الفجر المتسلل عبر الأودية المحيطة بالمدينة، حين تراجع الليل، وقد أدركه الصباح أو كاد. استأذن الفتى العربي علي شير مضيفه بختيار، وقد أحس بالتعب والنعاس، لكنَّ الشيخ أشار إليه بيده فيما توجه إلى الضريح وعاد بعد قليل حاملاً عصاه. رمى عباءته على كتفه، بينما وقف علي شير منتظرًا ما سيقوله بختيار.

– اسمع يا بني، ليس بعيدًا من هنا، سوف أصحبك إلى حفل أوزبكي، نأكل "البلوف"، لا يختلف كثيرًا عن الطعام العربي، بل يشبهه إلى حد كبير.

obeikandl.com

- عرفت "البلوف" فقد تناولته في مقبرة "شاه زند" حيث أقيم هناك، في أحد الأضرحة وقد أخبرتك بذلك.

- لكن "البلوف" الذي ستأكله مختلف عن الذي تعرفه، أرز ولحم أكثر، ودهن أقل، إضافة إلى الكثير من المكسرات (الجوز واللوز والبهارات الخاصة) والجزر، إنها الأكلة الأكثر شعبية في أوزبكستان، بل في أسيا الوسطى، ولكل منطقة "بلوفها" الخاص بها، كما يمكن التعرف إلى وضع صاحب الدعوة الاجتماعي والاقتصادي من مكونات "البلوف" وتوابعه، لذلك تختلف الموائد من طبقة لأخرى، ومن مضيف لآخر.

- لا بأس، يا مولاي، سوف أبدأ يومي بالبلوف الذي تعودت على تناوله في الصباح، كما يفعل أهل هذه البلاد في مناسباته.

- سوف لن تندم.

- لن أندم، يا سيدي، فمنذ أن جئتكم، لم أعرف غير البلوف و"الصمصة"؛ مرة باللحمة المفرومة، ومرة أخرى بالبطاطا. نحن نعرفها أيضًا.

- دعوتي لك ليس للأكل فقط، وإنما لغايات أخرى.

- وما هي، يا مولاي؟

- سوف تعرفها هناك.

أشار بختيار برأسه منطلقًا نحو المنحدر المؤدي إلى عين الماء، التي شرب منها الأمير تيمور، وكان يحلو له الاسترخاء عندها، وغسل قدميه بالبركة الصغيرة، حيث يتجمع الماء قبل أن يصب في النهر الصغير، القريب من عين الماء.

وقف علي شير يراقب بعض النسوة يحملن دلاءً صغيرة، وقبل أن يملأنها، يتبركن بمياه العين، ويمسحن وجوههن بها، كأنما يبعدن الشر عنهن، ويقرأن ما تيسر من القرآن، أو كتب مقدسة أخرى، أملاً في نيل البركة، واستجابة دعواتهن وتمنياتهن.

الطريق إلى "ريغستان" تحتاج إلى وقت ليس قصيرًا. أوقف بختيار سيارة روسية من نوع "لادا" قديمة، لا تزال تعمل على الرغم من مرور أكثر من عشرين سنة على صنعها.

أخرج بختيار من محفظته ألفي "سوم"، وأعطاها للسائق العجوز، على الرغم من أنَّ هذا طلب ألفي "روبل"، ما دفع علي شير إلى سؤاله مستغربًا:

- أما زلتم تتعاملون بالروبل حتى بعد استقلالكم عن روسيا؟

- لا يا بني، نحن نتعامل بعملتنا "السوم"، لكن كثيرًا من النَّاس ما زالوا يطلقون عليها "روبل"، بحكم العادة ليس إلا.

- إلى أين نحن ذاهبون، يا مولاي، في هذا الصباح الباكر؟

- ليتك تكفّ عن السؤال أيها العربي. كل شيء في أوانه، فلا تتعجل نصيبك. ها قد وصلنا. اتبعني، ولا تكثر من الكلام.

ترجل بختيار من السيارة، وتبعه علي شير. المكان مزدحم بالمدعوين، فيما اصطف عدد من الرجال أمام المدخل يستقبلون الضيوف، يرشدونهم إلى أماكنهم في الساحة الكبيرة التي ازدحمت جنباتها على اتساعها، ولولا أن هبَّ أحد المضيفين لاستقبالهما، ما كان لهما أن يجدا مكانًا وسط ذلك الزحام.

أشار بختيار بيده للفتى العربي فتبعه، وهو لا يزال معلق النظرات:

- لا تبتعد عني. أخشى عليك من الضياع في الزحمة، فيصعب علي أن ألقاك.

- لا تخشَ عليّ، سوف أبقى ملازمًا لك، ولن أبتعد عنك، لكن ما يحيرني؛ من أين لهم ما يكفي لكل هؤلاء؟

- لن يخرج أحد دون أن يأكل. لا تقلق يا بني. الطعام كثير.

- يبدو أنَّ صاحب الوليمة أحد أعيان المدينة.

obeikandl.com

- وربما أكثرهم غنىً.

- واضح.. واضح.

- كفّ عن التعليق واتبعني.

جال الشيخ بنظره أرجاء المكان، لعله يجد مكانًا يتجه إليه، حتى كاد يفقد الأمل، لولا أنَّه رأى أحدهم يسرع نحوه، مشيرًا بيده، يدعوه إلى حيث طاولة المضيف.

- التزم الصمت واتبعني. قال بختيار مخاطبًا علي شير.

ما أن وقع نظره على المضيف، حتى تقدم نحوه مصافحًا، فيما تقدم الرجل نحو بختيار، بحركة تنمّ عن احترام كبير، وأجلسه إلى جواره.

كأنَّ عراكًا حدث في ركن القاعة؛ فجأة تراكض النَّاس، فلم يعد يرى مرافقه علي شير وسط الزحام، لكن ذلك لم يطل، حيث هدأ المكان، وتراجع النَّاس إلى أماكنهم، لكن علي شير لم يظهر، فيما راح بختيار يتفقد الحضور من بعيد، يحدّق في وجوه النَّاس، واحدًا تلو الآخر، وقد بدا القلق والخوف عليه، حتى أنَّ مضيفه لاحظه، فسأله عن سبب قلقه، فلم يجد بدًّا من إخباره بقصة الفتى العربي، لكنه لم يبح بكل ما لديه، فقد أمَّنه علي شير على سرٍّ لا يجدر البوح به.

استمع الحاج عبد الرحمن لقصة الفتى علي شير مشدودًا إلى تفاصيلها، وقد بدا غير مقتنع بما يسمع، إذ إن رواية بختيار لم تكن مترابطة في بعض مفاصلها، لكنه آثر الاستماع، وعدم الدخول في تفاصيل قصة الفتى العربي، وسط انشغاله بضيوفه الذين تزاحموا لتناول أطباق "البلوف"، وانتظار خلو مكان غادره أحدهم للتو بعد أن انتهى من تناول طعامه، فيما انشغل المضيف بوداع أحدهم والترحيب بآخر، حيث لم يجد بدًّا من الانسحاب، وقطْع الحديث مع بختيار.

- لا بأس.. لا تقلق.. سوف نجده. قال ذلك كأنما يريد أن ينهي الحديث.

تقاطر المدعوون يغادرون القاعة الكبيرة، فيما أدرك بختيار أنَّ أمرًا ما حدث، حال دون علي شير، ومنعه من الوصول إليه. كاد المكان يخلو من المدعوّين، ما دفعه إلى التقدم نحو المضيف، شاكرًا دعوته، وداعيًا بالعافية له ولأهل بيته.

انطلق بختيار نحو باب القاعة. وقف هناك. جال ببصره الجهات كلها، وسأل ما استطاع من الحضور، لكنَّ أحدًا لم يخبره شيئًا. لم يره أحد. غادر بختيار المكان وهو في حيرة من أمر الفتى؛ لم يلتقِ أحدًا إلا وسأله عنه. ضاع الفتى.. قال محدثاً نفسه. ابتعد عن المكان، لكنَّ صورة الفتى لم

obeikandl.com

تغادره. يلوم نفسه تارةً، ويختلق الأعذار للفتى تارةً أخرى؛ ربما عاد إلى حيث يقيم في مقبرة شاه زند، وربما هامَ على وجهه في أزقة سمرقند. ربما وربما. آهٍ.. ربما لم يستطع الدخول فهام في المدينة، وربما تعرض لحادث...

أحس بختيار بتعب شديد، فقرر العودة إلى ضريح دانيال، لعله يستعيد بعض راحته، التي افتقدها منذ فارقه علي شير، وضاع وسط الزحام.

كان بختيار يحفظ الطريق إلى الضريح عن ظهر قلب، ويحفظ وجوه أهل الحيّ، وربما أسماءهم أيضًا، رجالهم ونساءهم، يبادلهم السلام والتحيات، بل إنَّ بعض النساء يستوقفنه للسؤال عن رؤيا، أو تفسير لحلم، وما أكثر أحلام نساء سمرقند؛ بعضها كان حقيقيًّا، ومعظمها أحلام يقظة، تختلط بالتمنيات، حتى أنَّ بختيار كاد يحفظها، وقد أتقن التعامل معها، وامتلك القدرة على تفسيرها، بما يرضي الحالمات من نساء سمرقند، اللواتي يلجأن إليه.

- السلام عليك، يا مولاي...

أفاق من شروده على صوت نسائي:

- وعليكم السلام...

ردَّ التحية، لكنَّه لم يتوقف، وتابع سيره نحو الضريح، فقد تعوّد سماع ذلك من أهل سمرقند، الذين يعرفهم، والذين لا يعرفهم، لكن الصوت خاطبه من جديد:

- أراك مهمومًا، يا سيدي الشيخ..

توقّف، وقد همَّ بصعود الدرج المتهالك، المؤدي إلى الضريح، وردَّ حين وقع بصره على صاحبة الصوت:

- جئت من وليمة الحاج عبد الرحمن ماشيًا، وقد أخذتني الطريق، فأتعبتني مسالكها.

- لكنك شارد الذهن على غير عادتك.

- وهل تعرفيني حتى تقولي ذلك؟

- نعم، يا سيدي الشيخ، أنا أعرفك، وأنت تعرفني جيدًا.

- إذًا أميطي اللثام عن وجهك، لعلّي أعرفك.

اقتربتْ من الشيخ بختيار وهي تميط اللثام عن وجهها.

- لا أريد أن يراني أحد هنا.

ما أن رآها بختيار حتى شهق وراح يدور حول نفسه، وحين تأكد من خلو المكان خاطبها، وقد بدا عليه الارتباك والقلق:

- ضعي اللثام.. ضعيه، واتبعيني...

- لا داعي لذلك، جئتك للسؤال عن الشاب الذي كان برفقتك هذا الصباح.

- وأين رأيتنا؟!

- كنت أقف قريبًا من نافذة المطبخ حين مررتُما...

- وهل عرفته؟

- نعم.. إنه ذاك الفتى العربي، الذي التقيناه في الموصل، واسمه مالك.

- لقد اختار لنفسه اسم علي شير.

- وما الذي جاء به إلى سمرقند؟

- جاء يبحث عن ثريا، عنك يا ابنتي.

- مجنون!

- هناك ما يستحق الجنون.

مدت يدها إلى اللثام كأنها تتأكد من أنه يغطي وجهها خجلاً، وسألت الشيخ:

- وأين هو الآن؟

- ضاع في زحمة وليمة والدك. بحثت عنه، ولم أجده، وأنا قلق عليه.

- لماذا لا تسأل الشرطة عنه؟ ربما احتجزوه لأمرٍ ما.

obeikandl.com

- لا يزال الوقت مبكرًا، سوف انتظر اليوم، فإن لم يظهر، أسأل عنه الشرطة.

- حسن.. هل لك أن تخبرني إذا عرفت شيئًا عنه؟

ابتسم بختيار، فيما كانت ثريا ترد اللثام على وجهها استعدادًا لمغادرة المكان.

- احذري يا ابنتي؛ إذا علم الحاج عبد الرحمن بالأمر، سوف تكون العواقب وخيمة علينا جميعًا.

- لا أحد يعلم بالأمر، إلا أنا وأنت.

- سرّكما في بئر. اطمئني...

أحس بختيار بأنَّ عليه أن يجد علي شير. صعد الدرج المؤدي إلى الضريح، وألقى بجسده المنهك على المقعد الخشبي، فيما أحاطت به النسوة يتدافعن أمامه، وعلى لسان كل واحدة قصة، وحكاية للشيخ ترويها، وتمنيات بجواب، أو تفسير، يشفي غليلها، لكن قلب الشيخ غادر مع ثريا، وتركه معلقًا يتأرجح، تارة عند علي شير، وأخرى عند ثريا.. ماذا عساه أن يفعل؟

أحس بثقل الهمّ الذي ألزم نفسه به، لكنه قرر أن يمضي قدمًا في تحمل مسؤوليته مهما كلفه الأمر.

obeikandl.com

أسرع إلى خلوته المجاورة للضريح، وراح يستقبلهن واحدة تلو الأخرى، محاولاً الاختصار ما أمكن، وعدم الإطالة ما استطاع.

تنفّس بختيار الصعداء وهو يودّع آخر زبائنه من النساء، وقبل أن تأتيه امرأة أخرى، أسرع إلى إغلاق مكتبه، وهرول مبتعدًا عن الضريح، باحثًا عن سيارة أجرة تحمِله إلى مركز المدينة قريبًا من ريغستان، ليس بعيدًا عن المنارة، حيث القاعة الكبيرة، التي ضيع علي شير فيها، وليس بعيداً عن المكان ذاته، الذي كان فيه صباح ذلك اليوم الخريفي. طلب من السائق التوقف عند شجرة البتول التي بدأت تتعرى، منذ أن بدأ الخريف يضرب أوراق الشجر، ويعرّي أغصانها، كأنها تستعد للمطر القادم بعد قليل، وقد تأخر هذا العام، ربما انتظارًا لسقوط ما تبقّى من أوراقها، تنفض عنها الغبار الذي يهب من التلال المحيطة بالمدينة.

توقف بختيار، وراح يحدّق في الساحة الممتدة أمامه، حيث تقاطرت مجموعة من السائحين أمام مدخل المدرسة؛ بعضهم كان يهمّ بالدخول، والبعض الآخر يفاوض باعة التحف التذكارية في عرائشهم المنصوبة أمام المدخل، وعدد من الصبية، فتيانًا وفتيات، يلحّون على السائحين لشراء بضاعتهم، فيما انتشر عدد من رجال الأمن والشرطة، غير المسلحين، في مشهد مألوف، لا يضجر أحدًا، ولا يعكر صفو الحياة

ورتابتها، في مدينة لا يزال التاريخ أحد أهم عناصر تكوينها المديني. أفاق من شروده على صوت امرأة تمسك بيد طفل يصرخ. حدَّق بها وبالطفل الذي كان يحاول الإفلات منها:

- ماذا تريدين؟

- إنه يصرخ من الجوع. أعطني ما يكفي لشراء طعام...

كان الطفل يصرخ، والمرأة تشدّه بقسوة حتى يواصل صراخه. نقّدها ما تيسر من السومات، وهو لا يزال شاردًا يجول بناظريه أنحاء الساحة.

ابتعدت الغجرية، فيما كف الطفل عن الصراخ. أفاق بختيار من شروده على صوت رجل يلومه على فعلته، فشوارع المدينة ملأى بالغجر المتسولين بطرق شتى؛ إنهم مجموعات، وكل عصابة تتبع مختارًا، أو كما يسمونه "ملك النّورِ"، يدير أعمالهم، ويوجههم، بل ويجترح طرقًا للتسول، لا تخطر ببال أحد؛ في صباح كل يوم، يحضرون أطفالاً بأعمار مختلفة، ويوزعونهم عليهن على أنهم أبناءهن، أما الفتيان فيختارون لهم عاهة يتقنون تصنعها، بشكل يصعب على الناظر اكتشاف زيفها.

- كل امرئ ونصيبه يا بني. قال بختيار وهو ينظر إلى الرجل مبتسمًا، ولسان حاله يقول: ليست أول مرة، ولن تكون الأخيرة، فرزق النَّاس على النَّاس، فلا تكن من قاطعي الأرزاق..

أحس بختيار بالوقت يمضي، وأنَّ عليه اللجوء إلى وسيلة أخرى في البحث عن علي شير. قرر مواصلة طريقه، لكنه فوجئ بشرطي يعترض طريقه:

– السلام عليك،م يا مولاي.

– وعلى الحكومة السلام.

– رأيتك تقف حائرًا، فهل من خطبٍ ما؟ إن كنت بحاجة إلى مساعدة، فهل لي أن أساعدك؟

نظر بختيار إلى الشرطي، مادًّا يده مصافحًا. ضرب رأسه برأس الشيخ يمينًا وشمالاً، كعادة أهل تلك البلاد عند السلام.

– أي بني، أنا بحاجة إلى مساعدتك. أمس صباحًا، حضرت مع ضيف عربي، اسمه علي شير، تلبية لدعوة الحاج عبد الرحمن، لكنني أضعته في زحمة المدعوين، الذين ضاقت بهم القاعة، وربما انشغالي بالسلام على مضيفنا الحاج، حال دون وصوله إلي. بحثت عنه منذ انتهى الحفل، ولم أعثر على أثر له في المدينة، فهل تساعدني بالبحث عنه لدى الشرطة، إذ ربما كان لديهم ما يفيدوننا به.

– سمعت أنَّ الشرطة اعتقلت بعض الشباب، بعد شجار أعقبه فوضى وعراك قرب باب القاعة، أدى إلى جرح عدد من الحاضرين، وقد

obeikandl.com

أخبرني بعض زملائي من الشرطة، أنَّ سيارات الإسعاف نقلت بعضهم إلى المشافي القريبة.

- اسأل الشرطة يا بني، أما أنا، فسوف أسأل عنه في المشافي.

- رحمات.. شكرًا يا بني.. شكرًا.

انطلق بختيار إلى المشفى الرئيس والأكبر في المدينة، فيما توجه الشرطي إلى المخفر القريب، غير البعيد عن ساحة ريغستان، والمحاذية للبازار الكبير "شهرستان".

منذ (1873م)، انتشرت في المدينة عيادات محلية، أمر مندوب القيصر في حينه "كوفمان" بفتحها، واستقدم عشرات الممرضين والممرضات الروس، فقام هؤلاء بتعليم عدد كبير من الطلبة فنون الطب، وأسرار المهنة، وظل يطلق على هذه العيادات الاسم الروسي "غوسبيتال"، وكانت هذه العيادات والمشافي، تقام في أول الأمر داخل معسكرات الجيش القيصري، لأسباب أمنية، واستمرت كذلك بعد الثورة البلشفية، ولا تزال بعض هذه المشافي موجودة حتى اليوم، تقدم خدماتها للجمهور على اختلاف أعراقهم وانتماءاتهم الإثنية، وخصوصًا في المدن الكبيرة، حيثما كانت تتواجد ثكنات عسكرية، وتجمعات صناعية "برومزونه"، حيث كان البلاشفة يقيمون وحدات سكنية للعمال وعائلاتهم، قرب هذه

التجمعات الصناعية، ويقيمون معها ما يلزم من المنشآت والمؤسسات الصحية والرياضية وغيرها... وانتشرت، ليس بعيدًا منها، الكولخوزات (القرى الزراعية التعاونية)، وكذلك "السوفخوزات" وهي قرى زراعية حكومية.

كان بختيار يتنقل من رصيف لآخر، متجنبًا الحفر، التي كانت تكثر كلما ابتعد عن الشارع الرئيس، إذ إن هذه الأزقة لا تزال على حالها منذ رحل البلاشفة العام (1991م)، وربما قبل ذلك بسنوات عديدة، رحل البلاشفة بعد سبعة عقود، وبعد أن استنفذوا كل ما لديهم من وسائل لبناء دولة العدل والمساواة، دون أن يحققوا حلمهم الأفلاطوني.

هنا في سمرقند، يمكن أن تمر بأحياء لم يجر عليها أي تغيير منذ مئات السنين، كأنهم أهل الكهف، أفاقوا بعد نوم طويل، وها هم يتلمسون طريقهم نحو المدنية والحضارة، وقد فعلوا الشيء الكثير، وحققوا في سنوات قليلة، ما لم يتحقق في عقود من حكم البلاشفة.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

توقف بختيار أمام المشفى مترددًا، ثم ما لبث أن اندفع نحو سيدة تقف في زاوية الردهة، تحمل بيدها ملفًّا وأوراقًا، تلبس رداءً أبيض. سألها عن فتى عربي اسمه علي شير، في العشرينيات من عمره، ربما جيء به إلى المشفى أمس. هزّت السيدة رأسها يمينًا وشمالاً، وهي تنفي علمها بذلك، لكنَّ بختيار ألَحَّ عليها كي تتأكد من ذلك، ومراجعة أسماء الوافدين إلى المشفى، منذ صباح أمس.

– ربما كانت جراحه طفيفة، عولج في قسم الطوارئ، ولم يدخل المشفى.

– حتى هؤلاء نسجّلهم، ونذكر العلاج الذي قدّمناه لهم.

obeikandl.com

نظر بختيار إليها، فيما كانت السيدة تهم بالانصراف إلى عملها. فجأة، كأنما تذكرت شيئًا. اقتربت منه. جالت ببصرها المكان، وحين تأكدت من نظافته همست له:

- اسمع.. صباح أمس، جاءت سيارة شرطة فيها شاب له نفس الأوصاف التي ذكرتها، كان معصوب الرأس، يرتدي قميصًا ممزقًا، ملطخًا بالدم، كأنما تعارك مع آخرين، أو ربما تعرّض لحادثة ما. لم أعرف اسمه، أو أي شيء عنه، كما أنَّ الشرطة لم تسجّل اسمه في سجلاتنا، ولا أدري، ربما كان ذاك الشاب الذي تبحث عنه.

- سيدتي.. تعنين أنَّ الشرطة أحضروه، وهم الذين أخذوه؟

- نعم، يا سيدي، نعم.

خرج بختيار وهو لا يفكر بغير التوجه إلى الشرطة للسؤال عنه. كاد أن يهم بمواصلة السير لولا أنَّ أمرًا خطر بباله فجأةً منعه من ذلك، ودفعه للتوقف، ومراجعة ما يجب عليه أن يفعله.

علي شير، شاب عربي، ولست واثقًا من روايته، وسؤالي عنه قد يعرضني لما لا أحب... لا بأس.. سأنتظر قليلاً...

واصل بختيار طريقه يحدّث نفسه، ويقلب الأمر من جوانبه المختلفة، شارد الفكر يكاد لا يرى أحدًا في طريقه، على الرغم من ازدحام الطريق

بالمارة، حتى أنَّه لم يسمع سلام عدد منهم. فجأةً، أفاق من شروده على صوت يخاطبه:

- السلام عليكم، يا شيخ بختيار...

- وعليك السلام...

- ماذا تفعل في ديارنا؟

كاد يواصل سيره، لولا أنَّ الرجل راح يخاطبه، ويدعوه إلى داره. التفت بختيار إلى الرجل. اقترب منه، وقد أدرك من يكون.

- أعتذر منك، يا حاج عبد الرحمن، فهناك ما يشغلني، ويشتت أفكاري.

- تعال إذًا.. ادخل يا بختيار، واحكِ لي ما يشغلك. إذا توزع الهمُّ أمكن تحمّله. تعالَ يا أخي، تعال. البيت بيتك.

أمسك الحاج عبد الرحمن يد بختيار، وتوجّها معًا إلى فناء دار الحاج عبد الرحمن. لم تكن تلك أول مرة، فقد كان بختيار هنا في عيد الأضحى الأخير، وكذلك في رمضان، ومناسبات عديدة أخرى، وقد ربطته بالحاج وأسرته علاقات طيبة، كما أنَّ الحاج عبد الرحمن كان يتذكره في كل مرة، حين كان يوزّع ما تيسر للمحتاجين في الأعياد والمناسبات، كما أنَّه كان يستعين به، ويأتمنه على توزيع زكاة أمواله وعطاياه لمستحقيها.

obeikandl.com

ما أن وصل بختيار إلى صحن الدار حتى هبَّ عدد من الخدم لاستقباله ودعوته إلى صالة الضيوف، لكنَّ الحاج عبد الرحمن تدخل معترضاً:

- بختيار ليس ضيفًا، إنَّه أخ عزيز، وهو من أهل البيت، جهّزوا لنا صالة الطعام العائلية...

أما دارة الحاج عبد الرحمن، فهي مكونة من طابقين، الأول مرتفع عند صحن البيت، بارتفاع طابقين، تعلوها قبة سماوية كبيرة مزينة بلون السماء، تتخللها غيوم متفرقة، وطيور غاية في الإتقان، حتى أنَّ الناظر إلى أعلى، يعتقد للوهلة الأولى، أنَّ السقف مفتوح على الفضاء، وما من حاجز بينهما، وأنَّ ما يراه حقيقي وليس رسمًا، أما الجدران فقد زيّنتها جداريات قديمة، عكست معالم سمرقند، بأسلوب شرقي وقيصري، حيث أنَّ بيت الحاج عبد الرحمن، كان قصرًا لأحد أمراء سمرقند قبل الثورة البلشفية، وقد هرب من بطش البلاشفة، فعاثت ميليشيات الثورة البلشفية فيه خرابًا ودمارًا، وظل خربًا إلى أن استقلت أوزبكستان، وأصبحت سمرقند جزءًا من الدولة الفتية، اشتراه الحاج عبد الرحمن من الحكومة، وأعاد ترميمه مثلما كان قبل سبعة عقود، لكنَّ للحاج عبد الرحمن رأي آخر، فهو يعيد قصره إلى عهد مملكة "صغد"، التي وقفت في

وجه الإسكندر المقدوني، لولا مصاهرته ملك "بكتيريا" المجاورة، حين تزوج من ابنته "روكسانا"، حيث تحالف الطرفان ضدَّ ملك صغد وانتصرا عليه.

يعود قصر الحاج عبد الرحمن إلى أحد أمراء صغد، ويدلّك على ذلك، بشرة سكان الحيّ البيضاء، وعيونهم الزرقاء، وشعرهم المائل إلى الحمرة، وهو ما يميز أهل مملكة صغد، وأحفادهم، الذين لا يزالون يعيشون في سمرقند، وبعض الأحياء القريبة والمحيطة بقصر الحاج عبد الرحمن، قريبًا من ساحة ريغستان، وقد سكن الحيّ عرب بعد دخولهم المدينة، وإخضاعها لحكمهم في القرن الثامن الميلادي، بل إنَّ الحاج كان يسهب في الحديث عن تاريخ القصر، فكان يروي قصص أهل البلاد وأصولهم، فيشير الحاج عبد الرحمن إلى أنَّ أهل صغد هم من الجنس الآري، وبعد سقوط مملكة صغد، على يد تحالف الإسكندر وأهل"روكسانا" البكتيريين، يروي الحاج عبد الرحمن، كيف أنَّ الفرس، بقيادة "كير" و"داري"، هاجموا خوارزم في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وانتصروا على "تماريس" التي ذاع صيتها، وكانت هي وأهل خوارزم وعموم " قشقدرياه" يعبدون النَّار، فأخضعوا المنطقة بأسرها لحكم الفرس، لكن قتيبة بن مسلم جاء على رأس جيش مسلم كبير، متعدد

القوميات، وهاجم مملكة خوارزم، وأخضع المنطقة الممتدة من خوارزم غربًا إلى وادي فرغانه شرقًا، وكانت سمرقند في أوج ازدهارها، حتى أنَّ العرب أطلقوا عليها "روما الشرق"، حين دخلوها أول مرَّة العام (751م)، وقد استقر عدد كبير من الفرس في أحياء المدينة، وكذلك في بخارى وخوجاند وترمذ وخوارزم، وهم يفاخرون بأصولهم الفارسية حتى اليوم.

على الرغم من أنَّ بختيار كان مستمتعًا بحديث الحاج عبد الرحمن، لكنَّه كان قلقًا، مشتّت الذهن، زائغ البصر أحيانًا، ويبدو أنَّ مضيفه لاحظ ذلك، فبادره بالسؤال عن سبب انشغاله، وعدم صفو مزاجه، فقرر البوح للحاج عبد الرحمن بما يؤرقه ويعكرَّ صفوه، على الرغم من تردده قبل ذلك.

- نعم، يا أخي، هناك ما يؤرقني.

- خيرًا إن شاء الله؟

- أخبرتك، أمس، عن الفتى العربي "علي شير". بحثت عنه في كل مكان قد يكون لجأ إليه، ولم يفدني أحد بأي خبر عنه، لقد ضيّعته منذ صباح أمس.

نظر الحاج عبد الرحمن إلى بختيار، كأنما يلومه على تأخره في إبلاغه بأمر الفتى، لكنه، وهو المعروف بحكمته، التقط نفسه قبل أن يخاطب بختيار:

– اسمه علي شير؟

– نعم.. نعم، وهو من العراق.

– وأين يقيم؟

– يقيم في مقبرة شاه زند.

– ما الذي يجبره على ذلك؟ شوّقتني للتعرّف إلى هذا الفتى.

– لديه ما يشدّك إليه، على الرغم من أنني لم أعرف الكثير عنه، لعلك تساعدني في العثور عليه، فأنا أشعر بأنني مسؤول عنه، وأتحمل ما جرى له.

– أنت رجل صالح، يا بختيار، اطمئن، لن أخذلك، ولن أكون أقل حرصًا منك على هذا الفتى.

– أنا واثق من ذلك. بارك الله فيك. أنت رجل طيب، وسوف يعطيك الله حتى يرضيك.

– شكرًا لك، يا أخي. اذهب الآن، أما أنا، فسأبدأ البحث عن الفتى، وسوف أخبرك بأيّ جديد، إلى اللقاء...

غادر بختيار، وقد غمره إحساس بالراحة، فهناك من يشاركه مسؤولية ضياع الفتى، وهي المرّة الأولى التي يلجأ فيها إلى الحاج عبد الرحمن، وهو على يقين بأنَّه قادر على مساعدته، فهو تاجر كبير، وغني، حاز على احترام الدولة ورجالاتها، حتى أنهم يلجؤون إليه لحل بعض القضايا، وخصوصًا تلك المتعلّقة بالعرب الذين يعيشون في بلدة خاصة بهم تقع خارج بخارى، على جانب الطريق المؤدية إلى سمرقند، وقد اكتسبت اسم "عرب خانه"، كون ساكنيها من أصول عربية، جاء أجدادهم مع جيوش الفتح الإسلامي، التي وصلت إلى هذه البلاد، وقاموا بنشر الإسلام في وسط آسيا، التي يدين معظم سكانها اليوم بالإسلام، وجلّهم يعملون بتجارة الماشية ورعيها.

كانت الشمس تستعجل المغيب، والغيوم تركض مسرعةً نحو الشرق، فتغطي وجهها تارةً، وتبتعد عنها تارةً أخرى، فيما بدأ أهل المدينة يعودون إلى بيوتهم، إذ ليس في المدينة ما يغري بالسهر، وقد اعتادوا على ذلك منذ أمد طويل، حيث تبدو الشوارع موحشة بعد غياب الشمس بقليل، وتغلق المقاهي والبارات والمطاعم أبوابها، وقد اعتاد النَّاس على ذلك، منذ أيام الإتحاد السوفيتي، ولا يزالون على حالهم حتى اليوم، أما في القرى، فيبدو الحال وكأنَّ كثيرًا من أهل تلك القرى، لم يسمعوا بانهيار

الإتحاد السوفيتي، وسقوط الشيوعية، بل إنَّ كثيرًا منهم، لم يسمعوا بتبدّل الحكم، وإنْ سمعوا، فالأمر لا يعنيهم. النَّاس هنا مشغولون في تدبير حياتهم، وتدبّر معيشتهم، بعد انفلات السوق، وانفتاحه، وخضوعه لسياسة العرض والطلب، من دون حسيب أو رقيب، حيث ارتفعت أسعار السلع بشكل جنوني، لا مبرر له في معظم الأحيان، وازداد الأغنياء غنى، كما ازداد عدد الفقراء والمحتاجين، وشاع الفساد في مختلف مناحي الحياة، حتى أصبح أمرًا عاديًّا، بل ومقبولاً، يمارسه الجميع، ولا يشعر مرتكبوه بالعار، أو حتى بالخجل، حتى أصبح أسلوب حياة، وأساسًا للمعاملات التجارية والخدماتية، حتى أنَّ كبار السن يترحمون على الأيام الخوالي، أيام حكم البلاشفة؛ صحيح أنهم لم يملكوا الكثير، لكنهم لم يحتاجوا المال، فالسوق محدود البضائع، وليس هناك ما يشترونه، إذ لم يعرف أهل البلاد أية ماركة عالمية، لا من الملابس أو العطور، ولا من الأجهزة الكهربائية، فكل شيء مصنوع هنا، أو في دول الإتحاد السوفيتي. لديهم كل ما يحتاجون من طبابة، أو تعليم، أو سكن، أو ضمان اجتماعي. حياتهم قائمة على مبدأ يعتمد كلٌّ حسب جهده، ولكل حسب حاجته، من لم يعجبه ذلك، هرب بماله وجلده، إن استطاع ذلك، وأخذت الدولة مال وعقار من لم يستطع الهرب، وبعد سقوط النظام،

عاد أحفاد من هربوا، استردّوا ممتلكاتهم، اشتروا أملاك الدولة بسعر بخس، وأخذوا ما طاب لهم من المزارع والمصانع، لكنهم عجزوا عن تشغيلها أو إدارتها، وبقيت لزمن طويل معطلة وغير ذات جدوى، واستغرقتهم الصحوة أكثر من عشر سنوات، حيث بدؤوا يتلمسون طريقهم نحو إقامة دولة عصرية ومجتمع مديني، لعلّهم يلحقون بالدول الأخرى، ويستعيدون هويتهم التي ضاعت، أو كادت، خلال سبعين سنة من محاولات إلغائها وطمسها.

كان بختيار ينتقل من زقاق إلى آخر على غير هدى. يحدث نفسه تارة، وتارةً تأخذه الأفكار السوداء إلى حكايات قديمة كان نسيها، لكنها بقيت في أعماقه، كأنها أرشيف يعود إليه، فلكلٍّ منَّا أرشيفه الخاص، حيث تتسع ذاكرة كل منَّا لكثير من الملفّات التي يعجز الحاسوب عن حفظها، فها هي ملفات خمسين سنة وأكثر، بكل تفاصيلها، تنفتح أمامه على آخرها، بل ويحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، لكنَّه يتجنب كثيرًا منها، ويودّ لو يستطيع محوها من ذاكرته، والاحتفاظ بأرشيف نظيف ليس فيه سوى ما يطيب له ويرضيه.

قفزت، أمام بختيار، كل الأفكار السوداء، والصور القبيحة، راح يطردها مثلما كان يفعل في ليالي الصيف التي كان يقضيها قرب البحيرات

obeikandi.com

الصغيرة، وتجمعات المياه الراكدة في "جيزاك"، التي تتوسط الطريق إلى طشقند، يصطاد سمك "السوداك"، و"السادان"، و"الكربيه"، حيث يقضي ليله يتصيد الحشرات والبعوض اللعين، فيما كانت تتصيده، ويقضي الليل يتصيدها، وحين يطلع النهار، يأخذ سلّته الخاوية، ويمضي باحثًا عن امرأة تدعى ميمونة يعرفها منذ كان فتىً يافعًا، تصنع دواءً من الأعشاب التي تنبت في منطقة "جيزاك"، يدهن بها الأجزاء من جسده التي تعرضت لضربات ولسعات البعوض في الليلة الفائتة، ويعود مسرعًا إلى سمرقند، حتى تظن أنه لن يعود إلى "جيزاك" ثانيةً، بعد كل ما جرى له من البعوض، لكنَّه سرعان ما يشفى، ويعاوده الحنين إلى الصيد، فيعود ثانيةً إلى بحيرات "جيزاك" حاملاً الدواء، الذي صنعته ميمونة.

... آهٍ لو كان لدى ميمونة دواءٌ، يخلّصني من هذه الكوابيس، التي تطاردني أينما ذهبت. ليتها كانت بعوض "جيزاك"، لكان دواء ميمونة شافيًا ومخلصًا، لكنها ألعن وأشد فتكًا...

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

كان بختيار يقضي وقته مضطربًا وحائرًا. ينتظر غياب الشمس. يجلس في شرفة بيته يشرب الشاي الأخضر، وحين يعجز عن طرد الكوابيس، التي لم تفارقه منذ ضيَّع علي شير، لا يجد غير شوارع المدينة وأزقتها، يهرب إليها.. يدور في جنباتها. يحدِّث نفسه، فليس هناك غيره في ليل سمرقند، فلا الكلاب، ولا القطط، ترغب في التعرض للمخاطر، ربما بعض الجرذان تقفز من حاويات القمامة بعد أن تأخذ حاجتها. رأى بختيار طرقات وأزقة سمرقند، في ذلك الأسبوع، كما لم يرها في عقود مضت؛ تمددت سمرقند وتوسعت، حتى بدت بهية بأحيائها الجديدة، لكنَّ بختيار ظل يحتفظ لأحيائها القديمة بمشاعر دافئة، ولا تغريه

obeikandi.com

الأحياء الجديدة، ولا طابع بنائها الحديث، فيهرب إلى المدينة القديمة وأزقتها، التي تعوَّد عليها، وتعوّدت عليه، حتى حفظها عن ظهر قلب، وعرفه سكان الأحياء القديمة.

دار في المدينة تلك الليلة، كأنما يراها لأول مرة. كان يتفقّدها، كأنما يتأكد من كل حجر وزاوية. امتد تاريخ المدينة منبسطًا أمام ناظريه، حتى كاد يخاطب رموز ذلك التاريخ ويسلّم عليهم. رأى جنكيزخان وهو يمر بجيشه الذي اجتاح خوارزم، ووقف على أبواب سمرقند، فدمرَّ أفرسياب، قبل أن يواصل طريقه إلى بلاد الشام، ومر على بازار "كرفان سراي"، الذي بناه الأمير تيمور ليس بعيدًا عن "بازار شهرستان" غرب منارة سمرقند، حتى أحفاد عثمان، الذين عاشوا حول سمرقند، رآهم وهم يهرولون غربًا هربًا من الأمير تيمور، الذي طردهم ولاحقهم، حيث انتقلوا إلى "بايكنت"، التي كانت تعرف باسم "كراكول"، والتي جاءها العرب ونزلوا بها، واستقر كثير منهم فيها بعد انتهاء الحرب، وكان يسكنها الفرس والأتراك، ثم لاحقهم السلاجقة حتى وصلوا إلى أطراف الأناضول، فتصدى لهم البيزنطيون، لكنَّ بني عثمان لاحقوهم وانتصروا عليهم، فاستقروا في الأناضول، وأسسوا الدولة العثمانية. رأى بختيار سمرقند كما لم يرها من قبل، رأى الذين مروا بها، كأنَّه يعرفهم،

obeikandl.com

وتوقّف عند كل منعطف وزاوية، يتلمس حجارتها، ويخاطبها: تُرى، من ذا الذي مرَّ من هنا؟ ومن ذا الذي امتدت يده إلى هذه الحجارة؟ من ذا الذي أسند ظهره إلى حجارة سمرقند؟ ومن ذا الذي مرَّ من هنا وترك أثرًا؟ ومن مرَّ مثل هبّة ريح، لم تخلّف أثرًا، ولم تغيّر شيئًا؟ هذه سمرقند، حجارتها تنبئ عنها، وتكاد تصرخ أنا التاريخ الذي مرَّ من هنا، واستراح في كل زاوية منها...

أفاق بختيار من شروده على صوت المؤذن يرفع الآذان من على مئذنة الجامع الكبير. تلمَّس طريقه إلى الجامع، وقد قرر أن يصلّي الفجر هنا، على غير عادته، حيث اعتاد أن يصلي في الجامع الصغير القريب من ضريح النبي دانيال. توجه إلى المتوضأ، وحين انتهى، دخل الجامع بعد أن خلع حذاءه.

توقف عند الباب قبل أن يقرر وجهته، والصف الذي سيقف فيه. تحرك ببطء، لكنه توقف حين أحس بيد تمسك يده، وتشدّه نحو طرف صحن الجامع، وقد بدأ المصلّون يتقاطرون استعدادًا لإقامة الصلاة. نظر بختيار إلى الرجل، وقبل أن يبدي أي رد فعل، طلب إليه أن يبقى هادئًا، وأن يتبعه، فيما الإمام يدعو المصلين إلى الانتظام، والوقوف معتدلين في صفوفهم، لأنَّ الله "لا ينظر إلى الصف الأعوج".

- لا داعي للعجلة. انتظر، سوف نذهب سوية إلى البيت.

همس الحاج عبد الرحمن فيما كان يهمّ بمغادرة المسجد، محاولاً تجنب المصلين الذين اقتربوا منه، بعضهم للسلام عليه، وبعضهم لحاجة أو طمع في مساعدة أو صدقة، اعتادوا سؤال الحاج عبد الرحمن، الذي لم يرد سؤالهم.

كاد الجامع يخلو من المصلين. أشار الحاج عبد الرحمن إلى الشيخ بختيار أن يتبعه، وغادرا المسجد.

- تفضل، يا أخي، تفضل.

ذهل بختيار حين وقع نظره على الفتى العربي "علي شير" يقف عند الباب مرحبًا، وقبل أن يصحو من ذهوله، كان الحاج عبد الرحمن يقدم الفتى للشيخ بختيار.

- هذا صديقك مالك...

اقترب مالك من بختيار. سلَّم عليه بحرارة، فيما كان بختيار يقف مذهولاً، يكاد لا يصدق ما يرى.

- أفقْ يا بختيار، وتعال نتناول ما تيسّر من الطعام. قال الحاج عبد الرحمن وهو يمد يده إلى بختيار، يدعوه إلى الدخول.

- بل قل: نحتفل بهذه المناسبة، فالأمر يستحق ذلك يا أخي.

- بلى، إنَّه يستحق، ولكن قل لي يا علي شير..

- قلت لك: إنَّ اسمه مالك. انكشف سر الفتى، ولا داعي لإخفاء الأمر بعد اليوم.

- إذًا قل لي: أين كنت؟ ماذا جرى؟ وكيف عثر عليك الحاج عبد الرحمن.

- تلك حكاية طويلة، سوف يرويها لك مالك. المهم.. إنَّه الآن في داري، ولا خوف عليه، وسوف يبقى في حمايتي، أعطيه الأمن والأمان، إن حفظ العهد، ولزم ما يلزم. أنا بحاجة إليه، فإنْ رغب في ذلك بقي عندي، يساعدني، ويحمل عني بعض أحمالي، وإن لم يرغب، فأمره بيده، يفعل ما يشاء؛ إن شاء رحل، وإن شاء بقي في هذه الديار، شرط أن لا يخرج على النظام والقانون، وأنا ضامن له وكفيل.

كانت ثريا خلف الباب، تسترق السمع حين لمحها بختيار، لكنه حاول تجاهلها، غير أنها أنقذته حين توجهت إليه وهي تحييه مرحبة به، مستأذنة من والدها بأن يسمح لها بسؤال بختيار عن تفسير حلم يلازمها منذ وقت طويل.

- لا بأس، وأين أمّك مليكة يا ثريا؟ اسأليها، إن كان لديها ما ترغب في سؤال الشيخ بختيار عنه؟

obeikandi.com

لم تكن ثريا راغبة في انضمام أمها إلى لقائها الشيخ بختيار، فلديها ما لا ترغب في أن يطّلع عليه أحد. استأذنت والدها، وتقدمت داعية بختيار إلى زاوية الصالة.

– سيّدي.. ها هي الأمور تجري كما اشتهيت، بل أفضل مما اشتهيت.

– إنَّه القدر، يا ابنتي، فلا تتعجلي قدرك، مازلنا في أول الطريق، والريح تجري كما تشاء، ولا نملك غير درء مخاطرها، وامتصاص غضبها، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

– أخاف من الغيب، يا مولاي، وأخشى ما تخبئه لي الأيام.

– الخوف من الفشل، أشد وأقسى من الفشل نفسه، سلّمي أمرك لله، وثقي بقادم الأيام.

– لا بأس، أخبرني بما تراه، وإن لزم الأمر تعال إلينا، فخروجي إليك محفوف بالمخاطر والشكوك.

غادر بختيار الصالةز سلَّم على الحاج عبد الرحمن مستأذنًا منه السماح لمالك بزيارته من حين لآخر.

غادر بختيار دار الحاج عبد الرحمن مثقلاً بأحاسيس متضاربة، تحمله إلى آفاق لا عهد له بها، وأسئلة لا يملك أجوبة لها. يقف حائرًا أمام طيف الفتى مالك، الذي لم يفارقه منذ أسابيع؛ ما الذي حمل فتى يافعًا في مثل

سنّه إلى قطع آلاف الأميال، من الموصل إلى سمرقند، متجشمًا عناء رحلة محفوفة بالمخاطر، وبالموت أحيانًا، عبر إيران وأفغانستان، هربًا من الموت الذي لم يترك أحدًا من عائلته، فهام في الأرض يبحث عن وطن جديد، وربما عن أهل آخرين؟

كان المشهد يمتد رماديًّا على مدَّ النظر، والسماء صافية، حتى أنَّ زرقتها بدت أكثر صفاءً، فانعكست أشعة الشمس المسرعة نحو المغيب، على حبات الرمل المتطايرة، فبدت مثل لؤلؤ يخرج من أطراف سمرقند متسلقًا التلال المحيطة كأنه سوار من ذهب عتيق، وقد بدت من بعيد كأنما تعبت من انتظارها الطويل، فاستراحت، وألقت بحملها الثقيل الذي تناقلته الهملايا من شمال الهند، وعبرت به شمال باكستان وأفغانستان إلى طاجكستان وقيرغيزيا وقازخستان، لتستريح على أطراف سمرقند محمّلة بأخبار العابرين إلى بقاع الأرض مَن ضاقت بهم أوطانهم، فراحوا يبحثون عن أوطان جديدة، أو الذين أقنعوا أنفسهم بحقهم في امتلاك أوطان الآخرين، غصبًا ورغمًا عنهم.

يمضي العابرون، وتبقى حكاياتهم، وسمرقند مثل غيرها من المدن، لها ذاكرة لا تختلف عن ذاكرة البشر، وكما يلفظ البشر الأطعمة الغريبة، فإنَّ المدن تلفظ الغرباء أيضًا، حتى وإن دخلوها عنوة، وسمرقند مثل كل

المدن، لم تقبَلْ بهم، ولم ترحّب بغريب، وإن كان للمدن حكاياتها، فقد تناقل أهل سمرقند حكايات مدينتهم، ولا يزالون يروونها حتى اليوم.

كان بختيار يحدث نفسه، حين وجد نفسه أمام بيته. توقف قبل أن يدخل. دار حول نفسه محدقًا بالمكان، كأنما يتأكد من سلامة الحارة، وزقاق "السلالم" المؤدي إلى بيته، والمقهى القديم عند زاوية الزقاق. ابتسم وقد رأى صديقه ناظم يقف أمام المقهى ملوِّحًا بيده من بعيد. لوَّح له، فيما كانت كلماته تتردد في أعماقه. كنت أستمتع بالجلوس في المقهى، والاستماع إلى روّادها من حولي، لكلٍّ منّا روايته يا بختيار، ولا بد أن يرويها، مهما كانت سخيفة، لهذا نحن بحاجة إلى المرايا، وربما إلى مزيد منها، حتى نرى أنفسنا على حقيقتها. نرى الآخرين كما نشتهي، ونروي حكاياتهم على هوانا. نظل نرددها، ونرويها، حتى نصدّقها.

obeikandi.com

الفصل الخامس

أطلق العنان لناظريه عبر نافذة غرفته في الطابق الأرضي، التي يقيم فيها، منذ دخل قصر الحاج عبد الرحمن، الذي ألحقه بطاقم العاملين في القصر، والقائمين على خدمة أهله وساكنيه. حملته ذاكرته إلى الموصل، التي لجأ إليها بعد أن ضاقت به الدنيا، حيث كان يقيم مع عائلته في حي "الكرَّادة"، حين أمطرتهم الطائرات الأمريكية بوابل من القنابل والصواريخ، التي لم ير مثلها إلا في الأفلام، وأفلام الرعب والحروب التي يشعلها الأمريكان في مناطق شتى من العالم. أفاق مالك على أصوات لم يسمعها من قبل، ولم يتعرف إلى أصحابها. لم يعرف أحدًا، ولم يجد أحدًا من أهله. سمعهم يقولون: لم يبق حجر على آخر. تطايرت

obeikandl.com

أجساد الأطفال والنساء في كل مكان، واختلطت بالحجارة، من يومها لم يرَ أحدًا من عائلته، ولا حتى من جيرانه. لم يدر كيف نجا من الموت، فقرر الهرب شمالاً حيث عمّه، الذي التقاه مرة، قبل أن ينتقل للعمل في حقول النفط قرب الموصل. بحث عنه في كل مكان استطاع الوصول إليه. راح يحدث نفسه، وقد حاصره شعور بالغربة لم يعهده من قبل: هربت من بغداد بعد أن حاصرتني الغربة في وطني، ولم أجد من أستجير به. أحسست بأنني أغرق، وما من أحد يمد لي يد العون، وينتشلني من ضياعي. رحت أبحث عن وطن جديد. دفعني خوفي إلى الشمال. أمضيت شهورًا وسنوات أجول كردستان وإيران، حتى وصلت إلى تبريز وشواطئ بحر قزوين الجنوبية. مررت بمدينة جميلة، لكنني لم أمكث فيها طويلاً، إنها مدينة العشق، عشق آباد، مدينة صغيرة ليس لها من اسمها نصيب، لم أرَ فيها أحدًا من العشاق، ربما كان آخرهم عمر الخيام، حيث كان يمر بالمدينة، ويرتاح فيها أيامًا برفقة جيهان، عشيقته التي تزوجها في آخر أيامه، في طريقهما من سمرقند إلى أصفهان، كان أهل عشق أباد يجهدون في تحضير أطيب النبيذ من كروم المدينة، التي تطوقها من جهاتها الأربع، تصْدح جيهان بصوتها العذب، فيما يترنح عمر الخيام طربًا، منتشيًا، وقد دارت الخمر برأسه، فأطلق العنان لرأسه يتمايل طربًا على

obeikandi.com

وقع موسيقى تسللت إلى روحه، فذابت في ثنايا جسدها، كلما تمايلت وهي تردد أبياتًا من شعر الخيام، وحين رحل عمر الخيام عن سمرقند إلى أصفهان انقطع عن زيارتها، ولم يعد إلى عشق آباد، من يومها لم يبقَ من المدينة إلا اسمها، حتى أنَّ أهلها يروون بأنَّ الخيام هو الذي أطلق عليها ذلك الاسم، وحين انقطع عنها سيّد العشق وأمير العشاق، فقدتْ سحرها، ولم يبقَ من نبيذ كرومها غير ذكرى عشاق مرّوا من هنا ذات يوم، وكلامٍ في العشق وليالي العاشقين، لم يبقَ منها غير القليل.

لم يجد مالك في المدينة ما يشدّه إليها، ويدفعه إلى العيش فيها، فواصل رحيله شرقًا نحو مزار الشريف. دخل أفغانستان، وكل ما يحمله عن البلد، جماعات تجهد في تكريس ما تعلّموه في مدارس دينية انتشرت في باكستان على جانبي الحدود مع أفغانستان، وفي منطقة القبائل حول وزيرستان وقندهار، وسيطروا على مزارع الخشخاش والأفيون التي تزود العالم بمعظم احتياجاته، يقايضونه بالسلاح وبالمال لتمويل نشاطهم ونشر معتقداتهم.

وصل مالك إلى مدينة مزار الشريف الحدودية، عاصمة الأوزبك في أفغانستان، فلم يجد فيها غير المسجد الكبير ملجأً، بعد أن نصحه رجل صالح، التقاه في الشاي خانه، القريبة من قصر الشاه أمان الله، الذي لجأ

إليه عليم خان آخر أمراء بخارى، يوم فرَّ من البلاشفة العام (1924م)، وأخذ معه عشرين جملاً محمّلاً بالذهب والجواهر، مصطحبًا معه زوجته "نديرة"- أمّ أولاده-، وآخر زوجاته "شمس"، التي تزوجها وهي لا تزال في الرابعة عشرة من عمرها.

عليم خان هذا، بنى قصرًا صيفيًّا شبيهًا بقصره الصيفي، الذي كان يقيم فيه في بخارى، لكنه لم يقض فيه غير ليلة واحدة، إذ لم يستطع أن ينسى بخارى وقصره الذي أحبّه كثيرًا. يروي أهل بخارى أنَّ الأمير عليم خان، نسي ابنه الصغير رحيم خان في بخارى، عندما غادرها مسرعاً، وكان في السادسة من عمره، لكن بعض معاونيه تسللوا إلى بخارى بعد شهور وأعادوه إليه، وقد أعطاهم صندوقًا من الذهب والجواهر لقاء ذلك، أما عليم خان فقد زار بخارى سرًّا مرات عدّة، لكنه لم يجرؤ على دخول قلعته التي حوّلها البلاشفة إلى ثكنة عسكرية بادئ حكمهم، ثم ما لبثت أن أصبحت مزارًا أثريًّا، وفتحت أبوابها أمام الجمهور، ولا تزال كذلك.

كان علي رضا، صاحب المقهى، يتحدث إلى مالك، مشيرًا، بين الحين والآخر، إلى أنه ينحدر من سلالة عليم خان، وأنَّ جده لأبيه كان أحد مساعدي الأمير، وقد رحل معه إلى مزار الشريف، شأنه في ذلك شأن

كثير من أهل بخارى وسمرقند وسردرياه وخيفا، وأنَّ رحيم خان، أمير خيفا، قتله البلاشفة العام (1918م)، في الوقت ذاته الذي قتلوا فيه شاعر خوارزم اسفنديارخان المعروف بـ"فيروز خان"، رفض مغادرة خوارزم، وقاوم البلاشفة، فقتلوه، عندها فرّ جدي مع من بقي من مساعدي رحيم خان، ولجأوا إلى الشاه أمان الله في مزار الشريف، فأحسن إقامتهم، وقدم لهم كل عون، أما عليم خان، فقد رحل إلى كابل، ومات هناك العام (1943م)، بعد أن عاد ابنه الأكبر إلى بخارى، ودرس في مدرسة ميرعرب، التي أسسها أحمد اليماني، وهو تاجر عربي جاء إلى بخارى من اليمن، وبنى مدرسة ميرعرب، التي ظلت تعمل منذ أسسها اليماني العام (1620م)، وانتقل سبيرخان إلى المدرسة العسكرية، وتدرّج في الجيش السوفيتي إلى أن استحق رتبة جنرال، وقد مات في موسكو العام (2005م).

وقريبًا من مدرسة ميرعرب، وسط ساحة المدينة القديمة، أقام أهل بخارى تمثالاً برونزيًّا للخوجه نصر الدين، لا يزال ماثلاً حتى اليوم راكبًا على حماره بالمقلوب، ونصر الدين هذا، هو "جحا" البخاري، غير أنَّ المسجد الكبير الذي يتسع لعشرين ألف مصلٍّ، يعتبر من أهم معالم بخارى، ويروي علي رضا عن أهل بخارى، أنَّ أبا عبد الله اليماني، وضع

كل ما يملك من ذهب وسط الساحة، وقال للعمال من أهل بخارى: "أعطوني ما أريد، وخذوا ما تريدون"، فكان العمال يوصلون الليل بالنهار، حتى انتهوا من بناء مدرسة ميرعرب والجامع التابع لها في وقتٍ قصير.

تتكون المدرسة من طابقين، الطابق الأول يحوي (124) صفًّا، ومثلها في الطابق الثاني، كانت ولا تزال منامات للطلاب، وهي تعمل منذ بناها أبو عبد الله اليماني وحتى اليوم دون انقطاع. أعطوه ما أراد، وأخذوا ما أرادوا من الذهب، بل كل ما يملك من ذهب.

أما الابن الثاني للأمير عليم خان، فقد عاد إلى بخارى، لكنَّه قُتل على يد ميليشيات ستالين العام (1937م)، ضمن سياسة التطهير العرقي التي مارسها ستالين بحق قوميات عدة.

كان علي رضا يروي حكاياته التي تناقلتها عائلته، منذ استقر والده مع جدّه في مزار الشريف، وكان يروي بأنَّ جده قدِم مع جيوش المسلمين الذين جاؤوا بقيادة قتيبة بن مسلم العام (751)، واستقروا في مدينة "كراكول"، التي يطلق عليها اليوم "بايكنت" على بعد مائة كيلومتر من بخارى، حيث كان يسكنها الفرس والأتراك، الذين استقروا في المنطقة بعد احتلال البلاد من الفرس، ثم من الأتراك قبل المسلمين، ومن هناك

خرج بنو عثمان إلى الأناضول، وأقاموا إمبراطوريتهم بعد انتصارهم على البيزنطيين.

شريط من الذكريات حملت مالك إلى بلاد لم يكن يحلم بأن يراها ذات يوم. بلاد غريبة وأناس غرباء، أطلق العنان لعينيه تلتقط ما علق بذاكرته، محاولاً رسم معالم جديدة، لكنَّ الماضي لا يزال يشدّه، ولا يملك فكاكًا منه، لا تزال بغداد تأبى الرحيل، حتى وإن رحل عنها، فهي باقية في أعماقه تأبى مغادرته، لكنه يخشى الحديث عنها، كأنما يسيطر عليه إحساس بأنه سيعود إليها ذات يوم، ولكن لمن سيعود؟ لم يبق في وطنه ما يشدّه إليه. لا شيء يستحق العودة. لا أهل ولا ديار. ضاع كل شيء. ربما سأنضم إلى العرب الذين استقروا في "كراكول" تشمكنت وسمرقند،... بخارى وخيفا، ومدن كثيرة في أسيا الوسطى.

ربما ليس أقسى من إحساسك بالضياع إلا إحساسك بفقد مواطنتك. تهرب من عيون النَّاس، وينتابك إحساس بالخوف من كل ما يحيط بك.

سمع علي رضا يناديه، ورآه يقف أمامه مبتسمًا:

– بنيّ.. منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، كان هناك هولاكو، وإن كان يأتينا باسم مختلف وبلغة مختلفة، وبأسلحة أقسى وأشد فتكًا من سابقتها. لا فرق بين البشر والحيوانات، فكلاهما يبحث عن فريسة يلتقطها،

كلاهما ينهش جسد الآخر، ويتغذى عليه، بل إنَّ البشر أكثر دموية أحيانًا. بنيّ.. هذه المدينة لا تختلف عن مدينتك. لن تجد ما يشدُّك إليها، وليس فيها ما يغريك للبقاء فيها. واصل سفرك، وارحل إلى بلاد أخرى لعلك تجد ما تبحث عنه.

أفاق مالك من شروده على صوت قادم من داخله يقول:

– وهل هناك ما يستحق كل هذا؟

– العيش في الجنة، يا بني، ليس بالجمال الذي نراه في أحلامنا، والحب وحده لا يكفي لبناء بيت سعيد، ولا لتحقيق السعادة، فإن كان الشيطان يكمن في التفاصيل، فإنَّ السعادة بحاجة إلى حلم نبنيه مع من نحب، عندها سيكون هناك ما يستحق العناء.

– ما بك يا مالك؟ أما آن لك أن تغادر مكانك؟ تعال نشرب الشاي معًا. عندي ما أقوله. سأنتظرك تحت العريشة.

أفاق مالك من شروده على صوت ثريا، بالكاد نجح في إعادة ما انفلت من عقد أفكاره، والعودة إلى حيث كان يقف متكئًا على حافة نافذة غرفته في الطابق الأرضي، المطل على ساحة الدار.

ها هو وجهًا لوجه أمام ثريا. ألقى كل أحماله خلف ظهره، ومضى إلى المجهول، وها هي مراكبه ترسو على شواطئ بعيدة لا يعرفها، ولا يدرك

ما ينتظره في بلاد غريبة. أحس بتزاحم الرؤى تقفز أمامه، لكنَّ روحه لا تزال تتمزق قِطعًا قطعًا، بعضها لا يزال في الموصل، وبعضها الآخر هناك في بغداد، كأنما تبحث عن أحلام كبرت معه، لكنَّ الموت فاجأه وسرق بعضها، وها هو يحمل معه بعضًا من حلمه إلى سمرقند. تعلّق بما تبقى من حلمه، من روحه التي تحاول أن تنهض من جديد. راح ينظر إلى ثريا، ويهمس لها: ثريا.. هل تقبلين ما تبقّى من روحي؟ دعيني أَلُمُّ ما تبقى من حلمي الممزق.. دعيني وحلمي.. ما عدت أملك غيره. حين ضيَّعني بختيار ظهر ذلك اليوم، غمرني إحساس بالضياع، بعد أن انتشلتني روحك منذ رأيتك عند ضريح النبي دانيال في الموصل، يومها.. تعلّقت روحي بك، وها أنا في ديارك، جئتك هاربًا من الموت المحدق بالعراق، حاملاً همِّي، ولست أملك غير بقية من حلم أعاد إلي بعضًا من روحي منذ رأيتك، وحملني حلمي إلى سمرقند لعلي أجد فيها ما يعينني على لَمِّ ما تبقّى من أشلائي المبعثرة.

لم يدرك مالك ما يجري في مزار الشريف، حين دخلها قبل أسابيع، حتى أنَّ إحساسًا بالارتياح خالجه بادئ الأمر، واعتقد بأنه قد يبقى في المدينة أشهرًا قبل أن يغادرها إلى سمرقند، إلا أنَّ تقلّب التحالفات وتبدّلها جعله يعيد حساباته؛ لم تهدأ مزار الشريف منذ استيلاء حركة

طالبان وأنصارها على الحكم في أفغانستان، وهزيمة الروس بعد أن تكبدوا خسائر فادحة، كانت سببًا من أسباب انهيار الاتحاد السوفيتي فيما بعد، وسيطرة طالبان على البلاد بدعم من الغرب والأمريكان بشكل أساس، لكنَّ غزو الولايات المتحدة وحلفائها أعاد الأمور إلى حالها، بل إنَّ ظهور حليف الولايات المتحدة والغرب السابق، بن لادن، الذي انقلب على حلفائه الذين دعموه في حربه ضد الروس، وتحمله مسؤولية ما حدث في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر (2003)، على الرغم من أنَّ كل العقلاء في العالم يدركون بأنَّ بن لادن وحركته ليسوا قادرين على فعل ذلك.

لم يستخلص الأمريكيون العبر من تجربة الروس، فانزلقوا إلى ذات المنحدر، وناهم ما نال الروس، وربما أشد وأقسى، حيث سلطة الدولة المدعومة من قوات التحالف لا تتعدى حدود العاصمة كابل، وبعض المدن الكبيرة حيث تتواجد قوات التحالف، أما مزار الشريف فتبدو كدولة تتمتع بحكم ذاتي. لا شأن لها بما يجري حولها، وتدير شؤونها الداخلية بشكل مركزي، دون تدخل يُذكر، حتى أنَّ أمنها، وإدارة أمورها العسكرية، كانت تُدار من الميليشيات الأوزبكية، الذين يشكلون غالبية مواطني مزار الشريف والمنطقة الشمالية.

كان الوقت فجرًا حين جاء رضا علي، طالبًا من مالك مغادرة مزار الشريف فورًا، وأن يحرص على أن لا يراه أحد، فقد دخل الأمريكان المدينة، وراحوا يبحثون عن الغرباء، إنه غريب.. وعربي، والعرب في هذه البلاد مطلوبون، ومطاردون، فقد دخلوها بهدف الانضمام إلى المقاومة، بل إنَّ قادة تنظيم القاعدة وعددًا كبيرًا من كوادر التنظيم من أصول عربية.. بن لادن، والملّا عمر، وعلي رضا يدرك أنَّ مالكًا لا علاقة له بكل هؤلاء، لكنَّه يدرك أيضًا أنَّه عربي، والعربي مطلوب، فهو متّهم إلى أن تثبت إدانته. رافقه إلى طريق فرعي، ليس بعيدًا عن البازار الكبير. توجه إلى أحد البيوت، فيما انتظر مالك في السيارة. بعد حديث قصير مع صاحب البيت، توجه إلى مالك قائلاً بصوت خفيض:

- مالِك، أنت أوزبكي، واسمك علي شير حتى تخرج من أفغانستان وتدخل أوزبكستان، وإن كنت تحمل أي وثيقة باسم آخر، أتلفْها. والآن تعال معي، سوف تغادر مع هذا الرجل إلى مدينة "ترمذ" الحدودية، حيث كانت الشوارع والأزقة تزدحم بالمتوجهين إلى البازار والعائدين منه.

- هذا صديقي علي شير، وهذا أخي كارمان، سوف يوصلك إلى الحدود، وعليك أن تتدبر أمرك بعد ذلك.

انطلق كارمان بسيارته، فيما كان علي شير يصافح علي رضا مودّعًا، شاكرًا له مساعدته، وحسن معاملته، معربًا عن أمله بلقاء يجمعهما ذات يوم.

ما أن ابتعد كارمان بسيارته عن المكان، حتى توقف عند منعطف يفضي إلى طريق عام. ترجّل كارمان من سيارته متوجهًا نحو دكّان صغير لبيع الملابس، فيما راح علي شير يحدّق في المكان، دون أن يرفع ناظريه عن باب الدكان، وقد بدأ القلق يساوره. حدَّق في المارة واحدًا تلو الآخر؛ للناس هنا أشكال مختلفة عما رآه في عشق آباد، أو في الموصل، يبدو عليهم الخوف والحذر، متأهبون كأنما ينتظرون حدثًا ما، أو مصيبة قد تأتيهم من حيث لا يتوقعون. لِحاهم مثل شعور رؤوسهم كثة وطويلة، حتى الشباب منهم لا يحلقون لحاهم، يضعون على رؤوسهم طاقية يسمونها "توبتيكا". يلبسون عباءة أو ما يشبه "المالطو" مفتوحًا من المقدمة، من غير أزرار، يسمونه "تشابان". تكثر الدراجات الهوائية في شوارع المدينة، فيما تنتشر عربات تجرها الحمير، وبعضها يجرها النَّاس أنفسهم، أما أهل البلد فيبدو عليهم الفقر والبؤس والشقاء، وأغنياء الحرب منهم رحلوا، ومن بقي منهم، يعيش في قصور معظمها خارج المدينة، يحرسها رجال مسلحون بكل أنواع الأسلحة الخفيفة، والثقيلة أحيانًا.

خرج كارمان من الدكان مهرولاً، حاملاً بيده لباسًا، ألقى به إلى علي شير موضحًا:

- هذا "تشابان" أوزبكي ستحتاجه في رحلتك، وهذه "توبيتيكا"، ضعها على رأسك، وبذلك سوف تبدو أوزبكيًّا.

قلّب علي شير"التشابان"، ووضع "التوبيتيكا" على رأسه. نظر إليه كارمان مشيرًا بإبهامه قائلاً:

- يَخشي.. يَخشي.. تمام، يا علي شير، أنت الآن أوزبكيّ.

- يَخشي.. يَخشي...

ضحك كارمان، فيما ابتسم علي شير محاولاً مجاراته.

- نحن في طريقنا إلى قرية سكانها من الأوزبك، تبعد عن مزار الشريف قرابة كيلومتر. لي فيها بعض الأصدقاء، يعملون مع القائد العسكري رشيد دستم، كبير الأوزبك وقائدهم في المنطقة، ينتشر رجاله على طول الحدود، وسوف نجد من بينهم من يساعدك على عبور الحدود بسلام، لكنني أنصحك بالتوجه إلى "أوتشقيزيل"، وهي قرية تقع شمال ترمذ، ومن هناك ستسافر إلى سمرقند عبر "قرشيه".

الطريق من مزار الشريف إلى الحدود تمر عبر قرى متباعدة، تحيط بها أشجار الحور والجوز، والبساتين التي تُروى من أنهار صغيرة، تتفرع من

نهر سردرياه "سيحون"، الذي يخترق الحدود من الشرق إلى الغرب، ملتحمًا بنهر أموردرياه "جيحون"، مواصلاً طريقه عبر تركمنستان، باعثًا الحياة في صحراء تمتد من جنوب طاجكستان حيث الجبال الوعرة، وحتى أطراف "نافاييه"، صحراء أوزبكستان الممتدة حتى بحر الآرال شمالاً، فيما تبدو جبال "طورا بورا" من بعيد تكسو قممها الثلوج، وتنام على خواصرها قرى جبلية جرداء، فيما تبدو مدينة "قندز" من بعيد، مثل سنديانة فعلت الرياح ما فعلته بأغصانها، لكنها قاومت بما تبقى من جذوعها، وتجاوزتها السيول القادمة من قمم الجبال، حيث يهرب الثلج إلى الأودية بحثًا عن دفء افتقده في شتاء طويل، غابت فيه الشمس، وانحبس المطر، حين اكتست الجبال بالأبيض، فتجمدت المياه في مساقطها، وعز الدفء على النَّاس، فراحوا يبحثون عنه في زوايا بيوتهم، وأمام مواقد ملأ دخانها سماء مدينتهم، حتى بدت سحابة من ضباب أسود، تغطي السماء، فتحجب الأزرق إلا قليلاً، حين يصعد الأبيض من قمم الجبال، كأنه زبد البحر عند الشواطئ، يرتاح من سفر طويل.

كان كارمان يُنقّل نظره تارة في المرآة، وتارة في الطريق، وأخرى في السهول الممتدة على جانبي الطريق.

- نحن الآن على بعد كيلومترات من آخر نقطة تفتيش قبل الحدود، بعد قليل سوف نهبط منحدرًا، عليك أن تنزل هناك، وتمشي متجاوزًا نقطة التفتيش، وسوف أنتظرك في الجانب الآخر بعد نقطة التفتيش، انتبه لنفسك، وحذار أن يراك أحد.

كانت السيارة تقترب من الحاجز، عشرات السيارات والشاحنات تقف في صفٍّ طويل، بانتظار تفتيشها قبل السماح لها بمواصلة السفر إلى الحدود، وقد غادرها سائقوها وتجمهروا قرب سياراتهم. فجأة سمع صوت انفجارات قوية. تراكض الجميع بعيدًا عن سياراتهم. اختلطت جثامين عديدة بشظايا السيارات، وتطايرت في الأنحاء، فيما كانت أصوات الطائرات تبتعد عن المكان، مخلفة دمارًا وموتًا، أعاد مالك إلى أيام بغداد؛ رأى أهله وعائلته في "الكرّادة" وما حلَّ بهم، ذات الطائرات وذات القنابل، والموت ذاته الذي حصد أرواح الآلاف، وشرد الملايين، وبعد ذلك سرق حلمه وأحلام ملايين الأطفال في العراق.

أفاق مالك على صوت كارمان يصرخ به ويدفعه:

- إنها فرصتك أيها العربي، اهربْ ولا تنظر خلفك، سوف تجد العشرات من الهاربين إلى أوزبكستان، اتبعهم، سوف تصل معهم إلى حيث هم ذاهبون، بعد الحدود مباشرةً وقبل الوصول إلى مدينة "ترمذ"

خذ يمينك نحو قرية "أوتشقيزيل"، اسأل هناك عن "رفشان كاتوف"، ليس بعيدًا عن مسجد القرية، يمكنك الاعتماد عليه في كل ما تريد.

انطلق مالك نحو منحدر يفضي إلى وادٍ يزدحم الهاربون على جنباته. لحظات.. أطلق ساقيه للريح، لكنَّه أبطأ حين سمع أصواتًا تصرخ، وتشير له بالابتعاد عن جسر قريب، فيما كانت أصوات الطائرات تقترب، كاد يتوقف لولا أنَّ أحدهم دفعه فألقاه أرضًا، تحسس جسده، فيما تطايرت حجارة الجسر، وبعض السيارات المتوقفة هناك بانتظار دورها.

انتظر مالك حتى ابتعدت الطائرات، وبدأ الرجال من حوله يتراكضون، مبتعدين عن المكان، تبعهم، فيما لا يزال يتحسس جسده، وقد بدا غير واثق بأنه لم يصب بأذى. واصل مالك هرولته شمالاً نحو الحدود. توقف حين رأى جمعًا من النَّاس. اقترب بحذر شديد، لكنَّه واصل حين رآهم يعبرون الحدود، فيما وقف جنود لم يرهم من قبل يراقبون العابرين دون أن يعترضوا أحدًا. تحسس "التشابان" الذي أهداه له كارمان، ومدّ يده إلى رأسه، عدَّل "التوبيتيكا"، وانخرط بين الجموع، فيما كان قلبه يكاد يقفز من صدره. حاول الإمساك بأعصابه، التي كادت تدفعه إلى الانهيار لولا تماسكه، ومساعدة بعض النَّاس من حوله. أخذ

نفسًا عميقًا، وهو يغادر الحدود بسلام، مبتعدًا عن المكان، وغير آبه بما يجري خلفه، أو لعله لم يجرؤ على النظر إلى الجموع التي غادرها، خوف أن يثير اهتمام أحد فيفسد ما حققه حتى الآن. أطلق العنان لناظريه تلتقطان تفاصيل المكان؛ سهول تمتد على طول النظر، تتوسطها قرى صغيرة، متباعدة، تتواصل بطرق قديمة تمتد على جنباتها أشجار "الدوب" المعمّرة، والتي تجاوز عمر بعضها المائة سنة وأكثر، لكنَّ الطرق تزداد أحوالها سوءًا، كلما ابتعدت عن الطريق الرئيس، ربما لم ترَ الإسفلت أو الترميم منذ غادر الروس أفغانستان، وبعد ذلك بسنوات قليلة، غادروا دول آسيا الوسطى برمّتها، حيث أعلنت هذه الدول استقلالها، لكنَّ المناطق الحدودية بقيت خاضعة لأمراء الحرب، والعصابات التي انتشرت في أرجاء البلاد.

كان المغادرون يمرون من حوله مسرعين، يتمتمون بكلام لا يفهمه، لكنَّه ما لبث أن أدرك ما يقولون، حين مرَّ به أحدهم، وأشار له بيده إلى أن يسرع. نظر إلى المشهد خلفه، كان النَّاس يهرولون شمالاً، مبتعدين عن المعبر، كلٌّ له وجهته وهدفه الذي يسعى إليه. انطلق هو الآخر مهرولاً وقد بدا هائمًا لا يدري أي الطرق يسلك إلى "أوتشقيزيل". فجأةً مرَّ بأحدهم وقد بدا عليه التعب. اقترب منه مرددًا اسم القرية التي

يقصدها، متجنبًا الحديث بالعربية، متظاهرًا بالتعب. أشار الرجل بيده نحو الشمال، فيما ظهرت لافتة علاها الصدأ، لكنَّ ما تبقى من حروفها يشير إلى مدينة "ترمذ" يسارًا، بينما يشير السهم إلى "أوتشقيزيل" شمالاً. واصل طريقه، فيما كان عدد العابرين إلى الشمال أقل من الذين توجهوا نحو مدينة "ترمذ".

كانت الشمس تسرع نحو المغيب، فيما خيَّم الصمت على المكان، لولا صوت طلقات بين الحين والآخر، يتردد صداها في البعيد. يتوقف مالك محدقًا في المشهد خلفه، ثم يواصل سفره نحو الشمال، وقد بدا عليه التعب بعد ساعات من السفر. كان الموت على بعد خطوات منه. لماذا لا ينتظر مغيب الشمس؟ فالليل ستّار، ودخول القرية في العتمة أكثر أمنًا. استحسن الفكرة، حين رأى "أوتشقيزيل" من بعيد، تظاهر بالحاجة، فاتجه نحو دغلٍ على جانب الطريق. لفَّ جسده بـ"التشابان"، وثبَّت "التبوتيكا" على رأسه، وألقى جسده المنهك عند شجرة "دوب" كبيرة، أو كما يسميها الأوزبك " تشينار". راحت تداعب وجهه ريح هبت عليه من أغصان حرَّكت أوراقًا تشبثت بعروقها الفتية، وتثاقلت حين استقرَّت حبَّات الندى على جنباتها، داعبت جفنيه المجهدين، فأطبقت عيناه، وغفا...

لم يقوَ على مقاومتهم، فاستسلم لهم. أغمضوا عينيه، وربطوا يديه خلف ظهره، وألقوا به في سيارة جيب قديمة. توقفت السيارة، فيما راح أحدهم يجرّه ويدفعه جانبًا، تقدم أحدهم وفك العصابة عن عينيه. كانت العتمة تلف المكان، فلم يتبين ما يدلّه على هوية خاطفيه، ولا المكان الذي أنزلوه فيه، لكنَّ خاطفيه تجنبوا العنف في أسئلتهم، والتحقق من هويته وأسباب تواجده في المكان. حاول مالك التعرف إلى هوية خاطفيه، لكنَّه لم يفلح. حدَّق في وجوههم لعلَّه يتعرف إلى جنسياتهم. ملامحهم لا تختلف كثيرًا عن ملامح العرب. خليط من الأتراك والفرس والأفغان، الذين لا تختلف ملامحهم عن ملامح العرب. فجأةً.. استعد الرجال، حين سمعوا صوت سيارة تقترب. ترجَّل أحدهم. انتشر الرجال وتأهبوا لإطلاق النَّار، لكنهم تراجعوا حين تعرّفوا إلى القادم، وراحوا يحيّونه. اقترب من أحد الرجال، وراح يحدّثه بلغة لم يفهمها مالك، يبدو أنها لغة الطاجيك، وهي قريبة إلى اللغة الفارسية. كان الرجل يستمع إلى محدّثه. فجأةً، توجّه إلى مالك، وراح يحدثه بالعربية:

- اسمع أيها الفتى، أنت عربي، إذا فعلت ما نطلبه منك، سوف تنجو بنفسك، وإلا فسوف نسلّمك إلى من لا يرحم.

- ماذا تريدون منّي؟ سأل مالك الرجل.

- سوف تسافر مع هذا "البغل" (أشار بيده حيث كان البغل مربوطًا إلى شجرة قريبة) إلى مدينة قرشيه، على بعد كيلومترات منها، مدينة قديمة اسمها "خيفا"، تبعد عشرين كيلومترًا عن قرشيه، ينتصب على يمين الداخل إليها، تمثال كبير للعالم أبي جعفر الخوارزمي. يأتيك رجل يخاطبك بالفارسية، فترد عليه بالعربية بأنك لا تفهم ما يقول. تسلمّه البغل وما عليه من حمولة، وتغادر المكان، سوف يعطيك بعض المال، ما يكفي لرحلتك إلى سمرقند، خذه وغادر "خيفا" فورًا.

- هل لي أن أعرف ما هي حمولة "البغل"؟

- لا تسأل، فالسؤال ليس في صالحك.

- وإن رفضتُ ذلك؟

- لا تملك غير ما نأمرك به، وإلا...

- لن أحمل شيئًا لا أعرف كنهه...

لم يكد ينهي كلامه حتى امتدت إليه يدٌ طويلةٌ، لم ير مثلها من قبل، حملته وألقت به بعيدًا، ليجد نفسه على ظهر بغلٍ محملٍ بأكياسٍ ثقيلة تتدلى على جانبيه، وعلى الرغم من حِمله الثقيل، إلا أنَّه كان يسابق الريح منطلقًا عبر طرقات وعرة. فجأة توقف البغل عند قدميّ الخوارزمي. نظر مالك إليه كأنما يتوسّله. حدَّق به مستعطفًا، لكن الخوارزمي كان يبتسم له، غير

مبالٍ بما يجري للفتى، عندها تقدم منه رجل بدا كأنَّه آتٍ من بعيد، يضع على رأسه خوذة غريبة، تشبه تلك التي يضعها رجال الفضاء، ويلف حول رقبته كوفية غطّت نصف وجهه، فلم تُظهر غير عينيه. بادره بكلمات فارسية لم يفهم مالك منها شيئًا، فرد عليه بالعربية، فبدا الحديث بينهما كأنَّه حوار طرشان. مدَّ الرجل يده. أخذ رسن البغل، وانطلق به بعيدًا عن المكان، فيما وقف مالك محدّقًا في الخوارزمي، وقد رآه يضحك ساخرًا منه دون أن يحرّك ساكنًا، كأنما يحرس المكان من المغول، الذين يحاصرون المدينة، استعدادًا لدخولها.

كأنَّ الزمن يعيد نفسه؛ هرب علماء بغداد بعد دمارها، وإحراق "دار الحكمة" على يد المغول، وإلقاء كل ما خلّفه الخليفة المأمون من تراث وكتب في نهر دجلة حتى تلوّنت مياهه بالحبر أشهرًا، يومها لجأ علماؤها الذين نجوا من المحرقة إلى "خيفا"، وأعادوا بناء المدينة على شكل بغداد، وقد بقيت المدينة كما بناها علماء بغداد حتى اليوم، وقد أقاموا فيها "أكاديمية المأمون"، ليس بعيدًا عن أسوار المدينة، وعلى مرأى من الخوارزمي.

وقف أمام المدينة. رأى بغداد، ورأى المغول، القدامى والجدد، يحرقون المدينة ويدمّرونها...

قفز مذعورًا على صوت رصاصات انطلقت ليس بعيدًا عن شجرة "الدوب" التي كانت تُؤويه. أدرك أنَّ ما رآه لم يكن غير كابوس. اشتد إطلاق الرصاص. زحف مبتعدًا عن مكانه في الدغل، حين استقرت رصاصة ليس بعيدًا عنه. انبطح أرضًا وقد أحسَّ كأن أحدًا يستهدفه، ويصوّب نحوه. زحف مبتعدًا، باحثًا عن مكان أكثر أمانًا، فيما تواصل إطلاق الرصاص من جهة الشارع، ما دفع مالك إلى الإيغال في الدغل مبتعدًا، على الرغم من تراجع كثافة الرصاص، وابتعاد الصوت تدريجيًّا.

أحس بخوفٍ شديد، حين توقف إطلاق الرصاص، وأطبق المكان على صمت لم يعهده منذ يومين. كان الدغل منفتحًا على آخره، حين كان الرصاص يحاصره من كل ناحية. لم يكن خائفًا من شيء، كأنَّ صوت الرصاص يدفعه إلى معمعان الحرب. قرأت مرة أنَّ الجندي في الحرب يرتعد من الخوف، إلى أن تبدأ المعركة، وتنطلق الرصاصة الأولى، كلما اشتدّ أوار الحرب، تراجع الخوف، وتوقف الإحساس بالألم، كأن ما يجري حوله لا يعنيه، أما الموت الذي كان مؤجلاً ذات يوم، فقد يتقدم إلى غيره، لكنَّ أحدًا لا يملك قرارًا باستعجاله أو تأجيله، لذا يحاصرنا الخوف، ويحتلنا حين يطبق الصمت من حولنا، لكننا نتحرر منه حين يتساقط الرصاص على رؤوسنا.

openkandil.com

أصبح الطريق إلى "أوتشقيزيل" سالكًا، والوصول إلى هدفه ممكنًا. واصل طريقه وسط الدغل، وهو يعيد ما قاله "كارمان"، مثل تلميذ يتأكد من المعلومات التي اختزنها في ذاكرته قبل الدخول إلى الامتحان.

لا يزال الوقت قبل منتصف الليل بقليل، حتى وإن كان متأخرًا، سوف يذهب إلى "رفشان".

القرية صغيرة، والنَّاس هنا يعرفون بعضهم، ولن أغلب في العثور على أحد يدلّني عليه.

توقف مالك عند مشارف القرية، كأنما يتأكد من أنَّ أحدًا لا يتبعه. واصل طريقه عبر طريق ترابي، لكنَّه توقف حين سمع صوت بوابة تفتح. التفت إلى مصدر الصوت. توقف حين رأى رجلاً كان يقف أمام البوابة محدّقًا به، لعله كان يحاول التعرّف إليه. تراجع مالك نحو الرجل. ألقى التحية:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

سأله عن الطريق إلى الجامع، محاولاً استعمال ما قلَّ ودلَّ من الكلمات، حتى لا ينكشف أمره. ما أن رآه يشير بيده إلى الطريق التي عليه أن يسلكها للوصول إلى الجامع، حتى انطلق ملوّحًا بيده للرجل، فيما كان

هذا يثرثر بكلام لم يفهمه مالك، أو ربما تظاهر بأنَّه لم يسمعه، وانطلق مسرعًا، مؤْثرًا الابتعاد عن الرجل.

فيما كانت بعض الكلاب لا تزال تنبح، كأنما اشتمّت رائحة غريب في القرية، لكنها لم تقترب منه، وواصل مالك طريقه نحو الجامع، وليس في ذهنه غير "رفشان كاتوف"، أمله الوحيد في الخروج من القرية، والوصول إلى سمرقند.

كانت أزقة القرية موحشة، وقد لزم أهل القرية بيوتهم، لا أحد في الشوارع، كأنَّ أهلها هجروها، أو أنَّ منعًا للتجوال حال دون خروج أحد من بيته. كان ينظر عبر الأزقة لعله يرى مئذنة، لكن العتمة كانت تحول دون ذلك، وزاد الضباب الأمر سوءًا، فلم يعد يرى أكثر من أمتار حوله، لكنَّه رأى في ذلك خيرًا، فقد شكَّل الضباب سترًا له. قفز باحثًا عن مخبأ حين سمع صوتًا لم يتبين له، لكنه ما لبث أن واصل طريقه، حين تبين أنَّ الصوت لم يكن إلا صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر. لحظات.. رأى بعض المتوجهين إلى المسجد فتبعهم. دخل المسجد متوجهًا إلى زاوية، كان يقف فيها عدد من المصلين. أخذ مكانه في الصف استعدادًا للصلاة، فيما كان الإمام يقيم الصلاة، صلاة الفجر أقصر الصلوات؛ أربع ركعات، اثنتان فرض، واثنتان سنة. انتهى المصلون من صلاتهم،

وبدؤوا بمغادرة المسجد إلا بعضهم. اقترب من أحدهم. سأله عن رفشان كاتفو، متجنبًا الحديث مع الرجل، محاولاً إخفاء وجهه، انطلق مسرعًا حال سماعه يشير بيده واصفًا له بيت رفشان بلغة أوزبكية لم يفهم منها شيئًا، لكنه شكر الرجل بكلمات أوزبكية، كانت لا تزال عالقة في ذهنه من بين كلمات قليلة أخرى...

- رحمات.. شكرًا.

أسرع مالك إلى حيث أشار له الرجل. توقف عند بوابة كبيرة، شأن كل البيوت في أسيا الوسطى، حيث يفتقد النَّاس الإحساس بالأمان، يحيطون بيوتهم بأسوار عالية تصل أحيانًا إلى ثلاثة أو أربعة أمتار، ويهتمون كثيرًا بالباب الرئيس.

في هذه البلاد، قد لا ينبئ المكان عمَّا يخفيه. هذه المباني لا تغري بدخولها، فإن دخلتها تكتشف جمال المكان وانبهارك بما ترى، حيث يهتم النَّاس بالهندسة الداخلية، والألوان الربيعية المدهشة، والانسجام الكبير مع النمط الفارسي وهو ما يميز مساجد ومدارس وسط أسيا أيضًا.

طرق الباب، وانتظر أن يُطل عليه أحد، أو يسأل من الطارق؟ لحظات.. ظهر رجل يضع على ظهره "تشابان"، وعلى رأسه "تبوتيكا"،

obeikandl.com

وراح يخاطب مالك بكلام لم يفهمه، لكنه قدَّر أنَّه يسأله عن اسمه وماذا يريد، بعد أن رحبَّ به، وسلّم عليه، مثلما يفعل الأوزبك عادة.

- أبحث عن رفشان كاتفو.

نظر الرجل إلى الفتى وقد فاجأه جواب الفتى.

- وماذا تريد منه؟

- اسمع أيها الرجل الطيب، أنا غريب عن دياركم، ولا أعرف لغتكم، هل تعرف العربية؟

نظر الرجل إلى مالك وقد أعجبته فطنة الفتى ونباهته.

- تعالَ معي، فهو يعيش في هذا البيت.

أشار الرجل إلى البيت الذي وقف ببابه. دعا الرجل مالك إلى الدخول، ما دفع مالك إلى الاعتقاد بأنَّ الرجل من أهل البيت، أو ربما كان صاحبه، حين رآه يرحب به، ويدعوه إلى الدخول، على الرغم من أنَّه لم يفصح عن ذلك.

دخل مالك إلى ساحة البيت، فيما راح الرجل يتفقد المكان، كأنما يتأكد من أنَّ أحدًا لا يتبعه، وما أن تحقق من ذلك لحق بمالك، مواصلاً ترحيبه به، متوجهًا نحو عريشة يتوسطها "طبشان"، وهو ما يشبه سريرًا مربعًا من خشب، تغطِّي أرضيته سجادة قديمة، ويحيط به "درابزين" من ثلاث

obeikandl.com

جهات، وعلى السجادة فراش يسمونه "كوربتشاه"، بطول يزيد على المترين، وسمك يصل إلى عشر سنتيمترات، ومَسَاند "ياستيك" بحيث تشبه الجلسة العربية. خلع حذاءه، وصعد إلى الطبشان، فيما تبعه مضيفه.

– هاه... قل لي، كيف وصلت إلى هنا؟ وماذا تريد مني؟ وقبل هذا وذاك، من أنت؟

– قلت لك، إنني أبحث عن رفشان، فهل أنت من أبحث عنه؟

– نعم، أنا رفشان.

– إذًا، سوف أروي لك قصتي.

راح مالك يروي للرجل قصته ومقصده، فيما كان رفشان يصغي إليه، محدقًا به، كأنما يتأكد من صدق روايته.

توقف مالك عن الكلام، حين سمع أحدهم يقترب، فيما كان رفشان يعرّف ابنه على مالك، ويطلب منه أن يحضر لهما شايًا أخضر، وما تيسر من الطعام.

– أظنك لم تأكل منذ أمس، وسوف نشرب الشاي أولاً، ثم تحكي لي حكايتك.

كان النهار يتسلل إلى القرية، فيما يحاول مالك إنهاء حديثه، وقد غلبه النعاس. نظر إلى مضيفه كأنما يستجديه السماح له بالنوم لوقتٍ قصير،

وقد أخذ النعاس منه مأخذًا، فلم يعد يقوى على مقاومته، وقد بدا عليه التعب.

نظر رفشان إلى ضيفه، فرآه منهكًا يكاد يستسلم للنوم. دعاه إلى إلقاء رأسه إلى المخدة التي يستند إليها، والاستسلام للنوم.

– كارمان صديق عزيز، سوف تبقى في ضيافتي حتى نجد طريقًا آمنًا ووقتًا مناسبًا لسفرك إلى سمرقند.

ربما لم يسمع الكلمات الأخيرة، فقد غط مالك في نومه، وبدأ شخيره يعلو، فيما انسحب رفشان مبتعدًا.

ما أنْ أغمض عينيه حتى غطَّ في نومٍ عميق. كانت أصوات الخيول وصهيلها يعلو، وصخب الجنود يزحفون من كل اتجاه، يتردد صدى خطواتهم عبر التلال المحيطة قبل أن يتساقطوا واحدًا تلو الأخر. ازدحمت الطرقات بفرسان وجيوش شتى. كلهم ماتوا. سقطوا دفاعًا عن قضية أقنعوا أنفسهم بأنها عادلة، وتستحق الموت من أجلها. سقطوا على أرض بعيدة ليست أرضهم. كان الفتى يسأل نفسه: "إذا كان الإنسان هو القيمة الأسمى، فليس هناك ما يستحق أن نضحي به". كانت القذائف تتساقط حوله، والرصاص مطر وقد راح يتحسس جسده، لعل إحداها استقرت في جسده، أو شظية وجدت طريقها نحوه. وسط هذا الموت

المحدق به من كل ناحية، كانت "ثريا" هناك، تمتطي حصانًا أشهب، تمد يدها إليه، فيما يزحف مالك محاولاً الوصول إليها والنجاة بنفسه، لكنها لا تزال بعيدة لا يطالها. يواصل زحفه، محاولاً تفادي الرصاص المنهمر، لكنه لا يلبث أن يتراجع إلى مخبأه وسط الركام، بانتظار لحظة صمت وهدوء، لكنَّ ذلك قد يطول، فلا يجد أمامه غير الانتظار، أو مواجهة الموت، لكنه لا يريد أن يموت الآن، وقد قطع آلاف الأميال، وأصبح على مشارف"سمرقند". تكوَّر في فراشه كأنما يحمي نفسه من رصاص وشظايا قذائف تتساقط على رأسه. تراجعت "ثريا" وقد بدأ الخوف يدب في أوصال حصانها، حتى اختفت عن ناظريه ولم يعد يراها.

ثَمَّ ما يدفعنا إلى التشبث بأحلامنا، حتى وإن كنَّا نبدو دائمًا كأننا على سفر، فها هو مالك وسط دائرة النَّار، أحلامه هناك في سمرقند فيما يواصل الترحال بحثًا عن نصٍّ يجمعه بحلمه الذي سبقه إلى سمرقند. ها هو يبحث عن طوق نجاة، يحمله إلى حيث البلاد الغريبة، عن تعويذة في ذلك النص، لعله يجد فيها أجوبة شافية لأسئلة كثيرة عالقة: ما الذي يجمعنا؟ ما الذي يفرّقنا؟ لماذا نتعلق بامرأة فيما لا نعير انتباهًا لغيرها؟ لماذا نحب؟ وما هو هذا الحب الذي يتغلغل في عروقنا؟ يخرجنا عن طورنا، ويفقدنا التوازن. كان مالك لا يزال يبحث عن سبيل للهرب، وقد

obeikandl.com

حاصرته الخيل من كل الجهات. بحث عن "ثريا" حيث رآها قبل قليل، لكنها اختفت ولم يعد يراها. تكوّر في فراشه ثانية، محاولاً حماية رأسه بيديه، لحظات قبل أن ينقض عليه أحدهم. أفاق على يد تهزه من كتفه. كان يتصبب عرقًا، فيما لا يزال مشدودًا ومتوترًا، وقد أخذ الحلم منه أي مأخذ. مر وقت غير قصير، قبل أن يصحو، ويخرج من أرقه وخوفه. لحظات.. أدرك ما جرى. لمَّ شتات حاله، وتلمّس طريقه نحو الحمّام الذي أشار إليه رفشان، وهو يمدّ له يده يساعده على النزول عن "الطبشان". قضى حاجته واغتسل، وعاد إلى حيث كان. توقف قبل أن يصعد. نظر إلى مضيفه رفشان، وقد بدا عليه الارتباك، وهو يبحث عن كلمات يغلق فيها أبواب الكابوس المفتوحة على مصاريعها، والذي لا يزال مشدودًا إليه...

- ما الذي يجعل النَّاس يلقون بأنفسهم إلى الموت دون أن يأبهوا بشيء؟

- إذا خسرت كل شيء، فمن حقك أن تفعل أي شيء. هذا ما يؤمن به معظم هؤلاء النَّاس هنا، وفي كل بقاع الأرض. ثمّ ما يدفع النَّاس إلى فك ارتباطهم بأية منظومة أخلاقية ويكسر حدود سلوكهم، فيبررون ما لا يبرر، ويصبح كل شيء مباح، في الطريق نحو الخلاص. النَّاس يأكلون

بعضهم، والبلاد تغرق في ظلمات لا نور في أنفاقها، ولا مشكاة تعطي الأمل للسائرين نحو الانعتاق، إن كان الموت يتربص بهم، فلا خيار أمام الضحية.

- برأيي.. كلاهما ضحية، القاتل والمقتول كلاهما ضحايا، كلاهما حطب لنار يجب أن تبقى مشتعلة لتبعث الدفء لجيوب قلة من النَّاس أقنعت نفسها بأنهم أفضل بني البشر، وأن من حقهم امتلاك كل شيء، وأنَّ على الآخرين إطاعتهم، وهم من أجل ذلك يبررون كل ما ترى من قتل وتدمير. انظر حولك، أينما نظرت، ستجد النَّاس يخلقون أسباب موتهم، ويسعون لامتلاك أدوات قتلهم.

- لا بأس يا أخي، نحن في الظلمة معًا، قد تطول، لكن ذلك لن يدوم. كان جدّي يقول لنا: "تفاءلوا بالخير تجدوه".

- اسمع يا بني، قريتنا صغيرة، فإن رآك أحد سوف يعرف أنك غريب، والغرباء في مثل قريتنا الحدودية مثيرون للشبهة، والعربي أكثر من غيره، لذا يجب أن ترحل قبل أن ينكشف أمرك.

- لكنَّ الغرباء كثيرون في القرية، ولن يغيّر وجودي في الأمر شيئًا.

- قد يكون ذلك صحيحًا، لكن رحيلك سيكون أكثر أمانًا، لذا دعني أتدبر الأمر حتى المساء، إذ علينا انتظار مغيب الشمس.

Obeikandl.com

– حسن، أنت أدرى، قرر ما تراه مناسبًا وسوف ألتزم بما تراه.

– ما عليك، سأتدبر الأمر وأعلمك.

غادر رفشان، وقد أوصى أهل بيته الاعتناء بضيفهم حتى يعود.

يمر الوقت في " أوتشقيزل" بطيئًا، وحركة النَّاس محكومة بعناصر حياتهم البسيطة والسهلة، كأنَّ الزمن لا يدرك حدود قريتهم، وإن أدركها يتردد في الدخول إليها. أحلامهم تشبه حقول الذرة والقطن، وبعض الخضروات والفواكه التي تكسو أرضهم، فصلاً بعد آخر، ينعكس ذلك على سلوكهم؛ طيبون إلى حد السذاجة، أحلامهم لا تتعدى حدود حقولهم، ومواسم الحصاد التي ينتظرونها بفارغ الصبر.

النَّاس في هذه البلاد لا يعنيهم ما يجري حولهم، إلا ما لامس أسباب رزقهم، وهدد معيشتهم؛ ضنك الحياة، وغياب فرص العمل المدني، وانتشار البطالة أدت إلى ازدهار التهريب عبر الحدود، الذي استوعب أعدادًا كبيرة من أهل المنطقة وحتى من أهل المناطق البعيدة، الذين جاؤوا للبحث عن فرصة عمل، أيّ عمل، حتى أنَّ بعضهم تورط في تهريب المخدرات، لصالح العصابات المنتشرة على جانبي الحدود، تحميهم مليشيات تعمل لصالح أمراء الحرب، وتجني الكثير من هؤلاء، الذين يعملون في التهريب، بل إنَّ بعض هؤلاء يعتمدون على تجارة

المخدرات والسلاح وتهريبها وترويجها، وتقديم الخدمات وبيعها لمن يدفع.

كان مالك ينصت إلى شوكت- ابن مضيفه رفشان- فيما كان الفتى يسترسل في حديثه عن حال المنطقة، وحياة أهلها، مسهبًا في تفاصيل واقعهم، متوقفًا عند كل زاوية ومنعرج، ينظر إلى مالك، كأنما يتأكد من إصغائه واستيعابه لحديثه.

نظر مالك إلى ساعته، وأحسَّ أنَّ الوقت يمضي، ولم يعد رفشان بعد.

- لا تقلق، سوف تصل إلى سمرقند.

قال الفتى شوكت مخاطبًا مالك، وقد لاحظ قلقه، فيما لم تفارق عينا مالك الباب، لعل مضيفه رفشان يأتيه بخبر، كأنَّ الشمس توقفت وسط السماء، فيما كان ظل العريشة يزحف بطيئًا نحو الشرق.

نهض شوكت، وأسدل ستارة تغطي الناحية الغربية من "الطبشان"، مستأذنًا مالك في الغياب بعض الوقت.

ألقى مالك بجسده المنهك لعلّه يريح رأسه من عناء حديث طويل، كاد يفقده صوابه، وقد أدخل الرعب إلى قلبه. عاد شوكت حاملاً طبقًا كبيرًا، قدمه لمالك، الذي لم يشعر بالجوع، لكنه أحس به ما أن رأى الطعام، كأنما نسي نفسه، أو أنَّ حديث شوكت أنساه جوعه.

راح مالك يلتهم طعامه، فيما كان شوكت يملأ فنجانًا بالشاي الأخضر، ويقدمه لمالك.

– تفضّل يا أخي، أمامك ليل طويل، وإن سافرت لا تدري متى سيتاح لك الطعام.

– شكرًا يا أخي، أهل الخير في كل مكان، لا تقلق، المهم أن أغادر إلى سمرقند، وأن أدخلها بسلام.

– لدى والدي معارف وأصدقاء كثيرون، ولن يألوَ جهدًا في إيجاد من يحملك إلى سمرقند.

ما أن انتهى من تناول طعامه حتى أحس بتعب شديد. استأذن شوكت، وألقى جسده مستسلمًا للنعاس الذي دهَمَه، ولم يقوَ على مقاومته.

كانت الشمس تمضي، وقد بدأ الصمت يخيم على القرية، حين راحت أزقتها وحواريها تغرق في العتمة، وقد خلد أهلها إلى بيوتهم، ولم يعد يُسمع غير نباح بعض الكلاب في أطراف القرية، غير أنَّ مالك غارق في النوم، لا يعكّر نومه نباح كلب، أو صياح ديك اختلطت عليه الأمور، فاعتقد أنَّ الصبح قريب، فراح يصيح، معلنًا بزوغ فجر جديد.

أفاق مالك على يد تهز كتفه. نهض مذعورًا، لكنَّ رفشان طمأنه، وطلب إليه الاستعداد للسفر، نظر إلى ساعته..

– أمامك ساعة، سوف تغادر مع أخي رسلان.

أشار رفشان إلى رجل كان يقف بالباب. انتفض مالك حين وقعت عيناه على شرطي بلباسه الرسمي، حدَّق به، وحين لم يسعفه لسانه راح ينقّل نظره بين الشرطي ورفشان، وقد أحس بحلقه يكاد يطبق على بلعومه، وبلسانه يتحجر. حاول الخروج من هول المفاجأة، لكنَّ لسانه لم يسعفه، ولم يقو على الحراك، لولا أنَّ رفشان أنقذه، وفك عقدة لسانه..

– هذا أخي رسلان، سوف ترافقه إلى سمرقند، لا خوف عليك معه، أنت في أيدٍ أمينة.

تحامل مالك على نفسه، ونهض متوجهًا إلى رسلان. سلَّم عليه، فيما ربّت رسلان على كتفه مطمئنًا، وناوله مظروفًا.

– احتفظ بهذه، إنها بطاقة هوية باسم "علي شير سعيدوف"، اسمك الجديد في هذه البلاد، إياك أن تضيّعها، قضينا النهار كله في إخراجها وتجهيزها.

مد مالك يده. أخذ الهوية غير مصدّق ما يجري.

– أنا جاهز.

عانق رفشان وشكره على مساعدته له، ثم استدار يبحث عن شوكت، سلّم عليه قائلاً وهو يودعّه:

- ربما نلتقي ذات يوم.

- في ظروف أحسن. ردَّ عليه شوكت وهو يشيّعه إلى الباب.

فوجئ مالك بسيارة شرطة في انتظاره. ترجَّل منها شرطي، داعيًا مالك إلى الدخول. خالجه شعور سيء، إذ اعتقد بأن مضيفه أعدَّ له كمينًا. تردد في الصعود إلى السيارة، لكنَّ رفشان سرعان ما بدّد شكوكه ومخاوفه:

- سوف تسافر بسيارة عسكرية، برفقة ضابط الشرطة أخي رسلان.

نظر مالك إلى رسلان، حدَّق به، غير مصدّق. قرأ على جدران مخافر الشرطة في بغداد عبارة لم يصدّقها، فكان يبتسم ساخرًا كلما قرأها "الشرطة في خدمة الشعب". قد يكون هذا صحيحًا، أما أن تكون الشرطة في خدمة المتسللين والهاربين وتوفير ملجأ آمن لهم، فهذا ما لم يحلم به قط.

أشار رسلان بيده إلى السائق، فانطلق هذا وسط أزقة القرية التي خلت من المارة في تلك الساعة من فجر يوم غائم، فيما أطلق مالك العنان لناظريه عبر نافذة الجيب العسكري الروسي الصنع والقديم.

- كان الطقس حارًّا أمس، وقد يعقب ذلك مطر وعواصف رملية.

قال رسلان، وانتظر مالك لعله يعقب بشيء، لكنَّ هذا لزم الصمت.

الطريق إلى "قرشيه" قديمة متهالكة، لكنَّ شجر "التوبل" الذي يمتد على طول الطريق، يخفف من رتابة المشهد، ويعطيه بعدًا آخر ينسيك رداءة الطريق. معظم هذه الأشجار عمرها بعمر الطريق، وبعمر السنوات الأولى للثورة البلشفية.

كان رسلان يواصل حديثه، ينتقل من موضوع لآخر، محاولاً دفع مالك إلى الحديث، والانخراط في حوار كان رسلان يفتعله، لكن مالكًا، الجالس في المقعد الخلفي، ظل شاردًا قلقًا، غير مبالٍ بحديث رسلان، حتى ضاق به ذرعًا.

- يقولون: "إنَّ الصمت الطويل يؤدي إلى الصمم".

- الصمت أبلغ من الكلام أحيانًا.

- تبدو أكبر من سنّك يا بني.

- رأيت الكثير، ومررت بأحداث أضافت إلى عمري سنوات، والعمر ليس بالسنوات يا سيدي، العمر قصير وسنواته لا تكفي لتحقيق أحلامنا، كأننا نسابق الزمن، قبل أن يمضي بنا إلى عوالم لا نعرفها، فنضيع في متاهات ودروب لا ندرك نهاياتها...

obeikandl.com

لا تزال الطريق إلى "قرشيه" مثلما غادرها الروس، والإسفلت الذي يغطيها، بدأ يتحلل، مخلفًا حفرًا لا حصر لها، ما يدفع السائق إلى الابتعاد ما أمكنه ذلك متجنبًا الحفر، فيخرج عن الطريق أحيانًا، إذ إنَّ السير على التراب أسهل وأقل ضررًا، ويتمهل أحيانًا أخرى.

أوزبكستان مترامية الأطراف، نصف أرضها صحراء قاحلة، وقراها متناثرة متباعدة، تصل درجة الحرارة فيها صيفًا إلى الخمسين درجة مئوية، فيما تهبط في الشتاء إلى ما دون الثلاثين تحت الصفر.

سكان بعض هذه المناطق لم يسمعوا بأنَّ الروس دخلوها، وحتى حين خرجوا، بعد سبعين سنة، لم يسمعوا بذلك، ولم يروهم.

بعد ساعات من السفر المضني، توقف السائق وقد مر بفلاح يقف إلى جانب كومة من البطيخ والشمام. ترجّل من سيارته الجيب، وتوجه إلى الرجل، وراح يساومه على السعر. حمل اثنتين وعاد إلى السيارة، لكنَّ رسلان ترجل مخاطبًا السائق :

- تعال نأكلها هنا. نظر إلى علي شير داعيًا إياه إلى الانضمام إليهما.

البطيخ والشمام في أوزبكستان، ربما من أطيب هذه الأصناف قاطبة، وهي معروفة بذلك، حتى أنَّ الروس يحملونها معهم عند زيارتهم لهذه البلاد، حيث يعتبر ذلك هدية تستحق إهداءها أو حملها معهم.

obeikandi.com

غادر ثلاثتهم عريشة البطيخ وهم يكيلون المديح للرجل وبطيخه الشهي، ليس بعيدًا من هناك، سوف يمرون بأول حاجز للشرطة، راح رسلان يوصي "علي شير":

- حاول أن تكون هادئًا. نحن نقترب من حاجز أمني. واصل صمتك قدر ما تستطيع، وإن سألك أحد، تظاهر بالصمم، واترك الأمر لي، سوف أتدبر الأمر. المهم أن تحافظ على رباطة جأشك. لا تقلق. كل شيء تحت السيطرة.

لزم "علي شير" الصمت، وهو يحدق في رسلان، كأنما يتساءل: ما الذي يدفع ضابط شرطة إلى مساعدته، وهو يدرك مخاطر وعواقب فعلته التي قد تكلفه وظيفته، وربما حبسه إذا انكشف أمره؟ لكنه أدرك أنَّ ذلك لن يكون في صالحه الآن، فآثر تأجيل ذلك إلى أن يصل إلى سمرقند. أشار الجندي إلى السيارة بالتوقف، فيما تقدم الضابط رسلان نحو الحاجز بحذر شديد.

- السلام عليكم "يخشمسيز "، كيف حالكم؟

قالها بلغة أوزبكية صحيحة، فيما رفع الجندي يده بتحية عسكرية حين رآه بلباسه العسكري، ورتبته. تبادل التحيات والسلامات مع الجنود، وبالكاد أفلت من دعوتهم لشرب الشاي. ودّعهم، وواصل سفره...

نظر السائق إلى الضابط رسلان حين وقع نظره على إشارة تبدو من بعيد، فقال مخاطبًا رسلان:

- إذا كنَّا سنذهب إلى سمرقند، فهناك طريق مختصر، ولا داعي للسفر إلى "قرشية.

- نعم.. نعم.. أعرف تلك الطريق.

رد رسلان وهو يشير إلى بلدة يعرفها، تدعى "غوزار"، فيما انعطف السائق نحو اليمين.

بدت الطريق من غوزار إلى سمرقند، أفضل حالاً، على الرغم من ازدحام الطريق بالسيارات، وانتشار الأبقار في المزارع الممتدة على جانبي الطريق، وقطعان الماشية، التي تملأ الحقول والتلال المحيطة، فيما لا تزال أشجار "الدوب والتوبل"، تمتد على جانبي الطريق إلى سمرقند، ومن بعيد تبدو الحقول محددة بأشجار الحور الطويلة، والتي اعتاد الفلاحون إحاطة أراضيهم وحقولهم الخاصة ويحددونها بها، وإذا طالت يقصونها لاستعمالها في سقوف بيوتهم الطينية، كما أنهم يستخدمونها سياجًا لمزارعهم، وحظائر ماشيتهم.

تعتمد العائلات في أسيا الوسطى عمومًا، على تضافر عمل أبنائها، فتراهم جميعًا، رجالاً ونساءً وأطفالاً يتقاسمون العمل في مزارعهم

obeikandl.com

الخاصة، ومن العيب خروج أحد على إجماع العائلة، حيث يتعرض من يجرؤ على ذلك لعقوبات كالحرمان والمقاطعة، حتى يصبح منبوذاً في عائلته، ولا ينظر إليه باحترام في قريته وعشيرته، على الرغم من أنَّ الدولة تفرض قوانين مشددة على كل من ينجب أكثر من طفلين، كما تمنع الزواج بأكثر من امرأة واحدة، على الرغم من أنَّ غالبية المواطنين يدينون بالإسلام، الذي يسمح بتعدد الزوجات.

كانت سيارة الجيب تشق طريقها عبر سهول تنحدر من نهايات جبال جرداء فيما تبدو من بعيد تجمعات المياه، وقد بدا بعضها بحيرات صغيرة، فيما تواصل الأنهار جريانها في السهل المنبسط على مد النظر، كأنما تهرب من نهر سيحون العظيم، القادم من سفوح الجبال شرقًا، متعرجًا، مخترقًا حدود أفغانستان وأوزبكستان حتى تركمنستان غربًا، فيما تواصل القنوات والأنهار الصغيرة خروجها، والانطلاق عبر السهول تمدها بالحياة، وتضفي على الأرض ما يكمل بهاءها وروعتها حتى تصب في بحر الآرال.

التفت رسلان إلى "علي شير" قائلاً:

- تلك بلدة "شخرسباز"، وذلك يعني أننا أصبحنا على مشارف سمرقند.

انتظر رسلان رد فعل "علي شير"، لكنَّ هذا لم يحرك ساكنًا. كان ينظر إلى رسلان تارة، ويمد بصره عبر النافذة غير مصدّق تارة أخرى، ربما سيطر عليه الخوف من الآتي، بعد قليل سوف يدخل سمرقند، مدينة لم يعرفها من قبل، ولا يعرف لغة أهلها، كما أنَّه لا يعرف أحدًا من أهلها، وثريا لا تزال بعيدة، حتى وإن دخل ديارها، أحس بأنَّ الوقت لا يزال مبكرًا للتفاؤل، والإحساس بالراحة والأمان.

- استلقِ على المقعد، وتظاهر بالنوم. قال رسلان مخاطبًا "علي شير".. وأكمل: وإن سألك أحد فلا تجب، سوف أُجيب عنك، أنت مريض ولا تستطيع التكلم.

كانت سيارة الجيب تقترب من الحاجز العسكري عند مدخل سمرقند، فيما اصطف عدد كبير من السيارات في طابور طويل. تبادل رسلان مع سائقه الحديث وتقييم الوضع، ثم انطلق هذا خارجًا على الصف، إذ رآها فرصته لإظهار حالة الطوارئ التي يحملها. ثَمّ ما دفع السائق إلى التباطؤ، فهناك مَن خرج على الصف قبله وأغلق الطريق. انتظر قليلاً قبل أن ينفذ صبره. ترجل من السيارة، وتوجه نحو الحاجز. ما أن رآه الشرطي حتى وقف مؤديًا التحية العسكرية، فيما بادره رسلان موضحًا عدم التزامه بالدّور قبل أن يسلّم عليه:

- اعذرني.. معي مريض ويجب الإسراع به إلى المشفى.

لم يكن رسلان بحاجة إلى تقديم نفسه بأكثر مما فعل. أشار الشرطي بيده علامة السماح له بمواصلة سفره، فيما عاد رسلان أدراجه إلى السيارة، منطلقين إلى سمرقند.

- سوف تنزل قرب البازار الكبير، ليس بعيدًا عن مركز المدينة. كن حذرًا. أنت شاب ذكي، وأنا واثق من أنك سوف تتدبر أمرك.

- هذا كثير، لا أدري كيف أرد لكم هذا الجميل، قدمتم لي ما لن أنساه ما حييت، شكرًا، وإلى اللقاء.

انطلقت سيارة الجيب مبتعدةً، فيما وقف "علي شير" على الرصيف المقابل للبازار وقد ازدحم المكان بالمارّة، والسيارات، والعربات الصغيرة المحمّلة بالبضائع.

في أوزبكستان، تسود ثقافة البازار، إذ يعتمد النَّاس في معيشتهم على هذا النمط من المعيشة، كل شيء هنا، قابل للبيع والشراء. قرر الدخول إلى البازار مدفوعًا إلى الفرجة ليس أكثر. يزدحم السوق في هذا الوقت بالباحثين عن حاجاتهم، وحتى بالفضوليين المتربّصين بفرصة سانحة لشراء بضاعة رخيصة، حتى وإن لم يكونوا بحاجة إليها الآن، وقد أخذوا ذلك عن الروس، فتعلموا ثقافة تخزين بعض المواد الأساسية كالبطاطا

obeikandl.com

والبصل والثوم، أو ربما أخذها الروس عنهم. تعالت أصوات الباعة حوله، فيما لم يبق صاحب عربة إلا وسأله إن كان بحاجة إلى مساعدة. أحس بصداع شديد، ربما الجوع الذي بدأ يقرص معدته، وربما رائحة معجنات "الصمصة". توجه نحو امرأة عجوز رآها تجلس جانبًا، وتضع أمامها طبقًا من "الصمصة"، ربما أشفق عليها، لكنَّ الجوع غلبه. اقترب منها، وتناول حبة أعقبها بثانية وثالثة. نقّدها ما طلبت، وغادر "البازار" وقد أحس برغبة في الاسترخاء ألحّت عليه. تذكر أحاديثه مع شوكت، فعلقت بذهنه مقبرة "شاه زند"، فقرر أن يلجأ إليها. خرج من البازار وانتظر حتى ابتعد قليلاً. سأل رجلاً كبيرًا في السن، وحين أدرك أنَّ المكان ليس بعيدًا عن البازار، توجه إليه، وقد أحس بأنَّ الأمور تسير كما يشتهي...

تحتل مقبرة "شاه زند" مساحة كبيرة من المدينة، تمتد من "البازار" وحتى أسفل التل جنوبًا. اختار "سقيفة" صغيرة. فرش "التشابان" على الأرض، وقد أحس بتعبٍ شديد، ورغبة في النوم لا تقاوم، وحين لاحظ أنَّ الرطوبة تزداد كلما ابتعد عن باب "السقيفة" ذات الباب الواحد، انتقل إلى مكان قريب من الباب، استند إلى الضريح، وغفا...

obeikandl.com

الفصل السادس

أفاق مالك من شروده على صوت ثريا تناديه، وتلحّ في ندائها:

- مالك.. ما بك تقف واجمًا سارحًا؟ أنا هنا انتظرك، وقد برد شايك. لا بأس، سوف أجدد الشاي. كفاك تناحة أيها العربي.. لا تنظر خلفك. اترك الماضي خلف ظهرك، وتعال هنا.

كانت ثريا تدعو مالك لمرافقتها في البازار، فيقضيان معًا وقتًا طويلاً يتسكعان في شوارع سمرقند، حتى بدت مرتاحة إلى تلك العلاقة البريئة، فيما تعلق مالك بها وملأت عليه حياته، وقد أسرّ لها بالحكايات التي علقت بذاكرته، وأحلامه التي بقيت تحت الركام في بغداد، وكيف تبدلت منذ أن رآها في الموصل، لكنها ظلت تنتظر البوح بما لم يقل، أو بما يحقق

obeikandi.com

حلمها، لكنه كان يحجم عن الذهاب بعيدًا، فالوقت لا يزال مبكرًا على ذلك، وثريا تسأل نفسها ذلك السؤال، الذي ظل يؤرقها بعد كل لقاء مع مالك، ولا تجد جوابًا: ما الذي جاء بهذا الفتى، ودفعه إلى اللحاق بهم، وتجشم عناء السفر، والتعرض للموت في الطرقات الخطرة التي سلكها، إذا كان لا يملك الشجاعة للبوح بحبّه لها؟ لكنها كانت دائمًا تبحث له عن أعذار.

كانت ثريا تحدّق في عينيه وهو مسترسل في سرد حكاياته، لعلها تجد جوابًا، أو لعل عينيه تفضحانه، فيبوح بسرّه وغايته. أما الفتى مالك، فقد كان يقف على تخوم حكاياته، ويمنعه الحياء من الاندفاع غير المحسوب العواقب، مؤْثرًا التريث وعدم الانزلاق إلى ما كان يعتقد بأنها الهاوية، إنْ لم تأتِ نهاياتها كما يحب.

- ماذا دهاك؟ رأيتك مستندًا إلى النافذة، لكنك لم تكن هناك. أين وصلت؟

- هكذا أنا منذ غادرت حي "الكرَّادة" في بغداد، تلاحقني أصوات القذائف وهي تتساقط في كل مكان. أحاول التقاط المشهد الأخير، قبل انسداد الأفق أمامي، وانغلاق المكان على فضاء اشتعل للحظة، ثم ما لبث أن انطفأت كل النيازك المتساقطة على رؤوسنا، لينفتح المكان على

آخره غبارًا تكاد لا ترى غيره، مختلطًا بكل ألوان الطيف. يعمي البصيرة والبصر. يطرحك أرضًا. لا تدري أهوَ الفراغ تسبح في فضائه، أم صخرة دفعتك إلى فراغ لا حدود له؟ رمتك فلم تعد تدري أين أنت! لعليّ ما زلت أسبح في ذلك الفضاء، ولا أدري متى أهبط، أو على أي شاطئ أرسو.

- إلى متى ستظل أسير كوابيسك؟ إن كنت لا تستطيع فك ارتباطك بالماضي، لماذا لا تعود إليه؟

- لو أنَّ الماضي يعود ما وصلت هنا.

غادرت ثريا حين سمعت والدتها تدعوها، فيما أطلق العنان لعينيه يتبعانها. شرب الشاي، وغادر العريشة إلى مهجعه في الطابق الأرضي، حاملاً معه إبريق الشاي والصينية والفناجين إلى المطبخ القريب من الصالون. أسند كتفه إلى الحائط حين سمع مليكة وقد ارتفع صوتها، محاولاً التعرّف إلى ما يجري. ارتفع الصوت، فيما راح ينصت مقتربًا من باب الصالة.. كان صوت مليكة.

- وماذا نعرف عنه؟ربما تبعنا طامعًا فينا.

- لم يكن يعرف شيئًا عن حالنا، فكيف يطمع فينا وهو لا يعرف من أمرنا شيئًا؟!

obeikandi.com

– لا أدري، لكننا لا نعرف شيئًا عن الفتى. الحذر واجب.

– لا تذهبي بعيدًا يا امرأة. لا تزال ثريا صغيرة، ولا أظنها تفكر في الارتباط بأحد وهي في هذا العمر. أجابها الحاج عبد الرحمن.

– ولأنها لا تزال صغيرة، أخاف عليها. ابنتنا تستحق من هو أفضل منه. إنها ابنتنا الوحيدة.

– ابنتنا سوف تأخذ نصيبها، فلا تتعجلي أمرها.

كاد يسقط، وقد أحس بالأرض تميد من تحت قدميه، وحيطان البيت تهوي على رأسه. شيء يشبِه ما رآه في بغداد، كأنَّ الزمن عاد به إلى الكرَّادة.

دارت به الجدران، فلم يعد يدري ما يدور حوله. اكتملت دائرة الزمن، وغطت عينيه غشاوة ألقت به أرضًا، فتناثرت أكواب الشاي وما على الصينية من إبريق وسكرية.

هرع الحاج عبد الرحمن إلى الممر، ليجد مالك ممددًا على الأرض مغشيًّا عليه، فيما وقفت ثريا مذعورة تحدّق به، لا تقوى على الكلام، بينما ظلت مليكة مكانها متشنجة. صرخ الحاج عبد الرحمن طالبًا كوب ماء. انطلقت ثريا تبحث عن الماء في المطبخ، لكنَّ مليكة كانت أسرع منها في العثور على كوب ماء، حيث كان زوجها جالسًا. دلق الماء على وجهه، وراح

يمرر كفَّه المبللة حيثما استطاع حتى بدأت الحياة تدب في عروقه، وصوت نفسه يعلو.

- يبدو أنَّه سمع حديثنا.

همست مليكة وهي تنظر إلى زوجها، فيما رمقها الحاج عبد الرحمن، كأنما يطلب منها السكوت والتزام الصمت.

أفاق مالك من غيبوبته. تحامل على نفسه، ونهض متكئًا على ذراع الحاج عبد الرحمن، معتذرًا منهم على ما بدر منه، وقد استقرت عيناه على ثريا، التي بدا عليها الارتياح، لكنها بدت في حالة توهان.

انسحب مالك إلى مهجعه، متذرعًا بحاجته إلى النوم، ورغبته في أخذ قسط من الراحة. ألقى جسده المنهك على سريره، وهو لا يزال في غير وعيه التام.

أغمض عينيه محاولاً تلمُّس حلمه الذي رآه يفلت من بين يديه. يبدو أنَّ الحلم لا يدوم، ودورة الزمن لا يدركها أحد. تسرق عمرنا دون أن ندري، وتهب الحياة لمن لا يستحقها.

كل ما كان وهمًا، والأحلام لا تنبت في ركام الأزمنة. لا مكان لك وسط هذا الدمار. سقطت أحلامك يوم رحلت عن بغداد. غريب أنت ها هنا، ولا أحلام للغرباء. أطبقت الدنيا أمام عينيه وانسد الأفق. لا

مكان له في هذا البيت. أفاق من ثورته واضطرابه، وقد قرر أن يضع حدًّا لهذا التيه.

يجب أن أغادر هذا المكان. لا بد من الرحيل. لا يليق بي البقاء هنا بعد الذي سمعته. سوف أرحل الآن وقبل طلوع النهار.

اطمأن بعد أن نظر إلى ساعته، وقد أدرك أنَّ الوقت لا يزال باكرًا، ومناسبًا للرحيل دون أن يراه أحد. جمع ما تيسر من ملابسه الضرورية. دسَّها في "مِخلاة" كان يحتفظ فيها ببعض أوراق ووثائق شخصيَّة، وتسلل إلى ساحة البيت، بعد أن اطمأن إلى خلو المكان.

أسرع نحو البوابة الرئيسة. دفع المزلاج وانطلق عبر الطريق مبتعدًا، وقد قرر ألا ينظر خلفه، ويكف عن حلمه، من أجل حلم جديد، أو ربما يعيد ترتيب أولوياته، وأولها إما أن يكون لائقًا لثريا وعائلتها، وإما أن يتنازل عن حلمه، ويطوي صفحة زخرت بالآلام والآمال، حلوها ومرها. ينكفئ على نفسه ويبدأ حياة جديدة، وربما يبحث عن حلم آخر، بعيدًا عن أحلامه التي جمّلها، وزيّنها، حتى بدت في أجمل صورة وأكثر إشراقًا ونضارة.

لا تزال سمرقند تغط في النوم، وما من أحد في طرقاتها غير بعض الفلاحين، يحملون ما تيسر من محاصيلهم؛ خضارًا وفواكه يزرعونها عادة

في بساتينهم وحدائقهم الخلفية الصغيرة، ويتقاطرون باكرًا إلى البازار لبيعها، وقد أصبح لكل بائع- وجلّهم من الفلاحات- زبائنهن، الذين يحرصون على شراء خضروات وفواكه وبيض بلدي طبيعي من الفلاحات.

لهؤلاء أيضًا أحلامهم، وأحلام الفقراء أكثر براءة، وأنصع بياضًا، وقد بدا مالك واحدًا من الفلاحين القاصدين البازار، بلباسه الأوزبكي "التشابان" و"التوبوتيكا" على رأسه.

لم يدر أين يذهب، لكن مشهد الفلاحات يحملن ما استطعن من الخضار والفواكه، وبعض العربات المحملة بالبطاطا والبصل وأشياء أخرى، فالساعون إلى البازار، أحلامهم لا تتعدى بيع ما يحملون، والعودة إلى عائلاتهم ببعض ما يكفي عوزهم. انشدّ إليهن. حدَّق في عجوز تحمل على رأسها كيسًا ربما كان مثل وزنها. تعثر بحجر وسط سبخة ماء. كاد يقع، لكنَّه تماسك مبتعدًا عن الماء. نظر إلى العجوز ثانية كأنما أراد أن لا تراه، ربما رأته، لكنها تظاهرت بانشغالها في حملها منطلقة نحو البازار. قرر اللحاق بها، لكنها كانت أسرع منه، ولم يعد أمامها للوصول إلى البازار غير منعطف قريب. اقترب منها. مدَّ يديه محاولاً مساعدتها. ابتسمت وهي تشكره...

- رحمات.. رحمات... شكرًا.. شكرًا...

فتحت الكيس، وراحت تفرش الأرض بخرقة كانت تلفّها على وسطها، وتوزع حمولتها بعناية وإتقان؛ بقدونس، كزبرة، نعناع، فجل، بصل أخضر، بقلة، شومر،...

نظر إلى العجوز، تأملها وهي ترش الماء على بضاعتها، فالماء يطيل في عمره وينعشه، ويعطيه حياة جديدة...

- هل أساعدك يا خالتي؟

- شكرًا يا بني.. لكنني لا أستطيع أن أعطيك مقابل ذلك، فأنت ترى حالي.

- أنا لم أطلب أجرًا. إن سمحت لي بمساعدتك سأكون شاكرًا، وهذا يكفيني...

- حسن.. تعال إذًا. قف خلف البضاعة، وليس أمامها.

فعل مالك ما طلبته العجوز، وهو يقول في سرّه: "ليتها لا تطلب مني أكثر من ذلك، فأنا لا أعرف شيئًا، وليس لي خبرتها".

لحظات.. تقدم رجل في العقد السابع من عمره. تبدو عليه النعمة وحسن الحال. نظر إلى مالك، ثم إلى العجوز التي بادرته بالتحية:

- أهلاً بك.. لم أرك منذ زمن.

- صحيح.. منعني انشغالي، ولزمت البيت أشهرًا.

التفت ثانية إلى الفتى قبل أن يسألها:

- هذا الفتى ابنك؟

- قل حفيدي.. ليته كذلك، لكنني محرومة من الأولاد، وقد التقيته في الصباح وتطوع لمساعدتي.

نظر الرجل إلى مالك ثم قال:

- حسن.. سوف آخذ كل ما لديكما. احملها واتبعني إلى السيارة.

لم تصدّق العجوز ما سمعت، لكنها نظرت إلى مالك، كأنما تقول له: لا بأس.. تعال وساعدني كل يوم، فوجهك جالب للحظ.

تبع مالك الرجل إلى سيارته. وضع كل ما كان لدى العجوز في صندوق السيارة، فيما أخرج الرجل محفظته وراح يعد النقود، وما أن انتهى حتى توقف محدقًا بالفتى كأنما يدقق بملامحه:

- أنت لست أوزبكيًّا. هل أنت أفغاني؟

- لا.. لا.. أنا عربي من بغداد.

- من بغداد؟! وما الذي جاء بك إلى سمرقند؟

- إنها الحرب يا سيدي؛ تفعل العجائب، وما لا يخطر ببال أحد.

نظر إليه محدّقًا، كأنما يبحث عن كلام:

obeikandl.com

- تطوّعك لمساعدة العجوز فعلٌ جميل، لكنه لا يليق بفتى مثلك. هل أنت بحاجة إلى عمل؟

أجاب مالك سريعاً:

- نعم.. نعم.. أنا بحاجة لذلك، بل أنا في أمس الحاجة.

- اسمع.. أنا أعيش مع عائلتي في أطراف "جيزاك"، ليس بعيدًا من هنا. بعد أيام سوف أزوج ابنتي، وما أخذته من العجوز، بعض حاجتنا لحفلة العرس. إذا رغبت بالعمل في الأرض، والاعتناء بقطيع من البقر وآخر من الغنم، تعال معي لشراء ما تبقى من احتياجاتنا للعرس، وسوف أوفر لك عملاً وإقامة لائقة.

- سوف أعطي العجوز ما أعطيتني وأعود إليك.

انطلق مالك غير مصدّق. أعطى العجوز ما أعطاه الرجل ثمنًا لحمولتها، وقفل عائدًا إلى الرجل.

- تعال يا... ما اسمك يا بني؟

- اسمي أليشير.. نعم.. إليشير.

- هذا اسم أوزبكي، فما اسمك العربي؟

- هذا هو اسمي.

- حسن.. تعال يا أليشير.

صعد علي شير، وانطلق الرجل مبتعدًا متجنبًا النظر إلى أليشير، تحاشيًا لإحراجه، وقد لاحظ عدم رغبته في إطالة الحديث عن اسمه.

كان عليه إطاعة الرجل، وحمل ما يشتريه من المخازن العديدة، لزوم حفل عرس ابنته، حتى امتلأت السيارة، بل ضاقت بحملها.

- هذا كل شيء. أرجو أن لا أكون نسيت شيئًا.

قال الرجل دون أن يلتفت إلى الفتى. وأكمل:

- سوف نأكل في البيت. لا أُحب الأكل في المطاعم.

قال ذلك، وأشار إلى الفتى للصعود إلى السيارة.

يستغرق الطريق إلى "جيزاك" ساعة ليس أكثر، والبيت يقع على أطراف المدينة، قال الرجل، فيما أبطأت السيارة. كاد للوهلة الأولى أن يغادرها، حين رأى أحد الجنود يقترب من السيارة، لولا أنَّه تذكر أنَّ أوراقه سليمة ولا داعي للقلق، ومع ذلك ظل مالك متعلقًا بالحاجز العسكري الذي مرَّ به قبل أكثر من سنة، بحماية الضابط "رفشان"، الذي حمله من "ترمذ" إلى "سمرقند"، وقدّم له ما لا يقدر على نسيانه.

أطلق مالك العنان لعينيه، تعيد تركيب الصور الممتدة على جانبي الطريق إلى "جيزاك"، وقد انتابه إحساس يشبِه ذاك الذي انتابه يوم غادر بغداد هربًا من جحيم الحرب على العراق. ها هو يغادر سمرقند، ويبدّل

obeikandl.com

وطنه وأهله من جديد، وحبه الذي اعتقد أنَّه موطنه، وملاذه الذي سيعيش فيه، ويحقق أحلامه التي رسمها. كان اعتاد على ثريا وأصبحت كل حياته. كاد ينسى أهله، فقد جعله الحاج عبد الرحمن أقرب النَّاس إليه، وصار يعتمد عليه في كثير من أعماله. فجأة تبخّر كل ذلك! ربما كان لهم الحق في ما قالوا، فهم لا يعرفونه جيدًا، لكنه لم يفعل، ما يدفعهم إلى الشك في أمره، وربما بدر منه ما يبرر موقفهم، ربما، وربما. "لكنني لم أخرج على المألوف في علاقتي بابنتهم، غير أنَّ ثريا لم تدافع عني كما يجب. صحيح أنها ردّت على أمها، لكنَّ ردَّها لم يكن كافيًا لدفع الشك عنه، وحتى الحاج عبد الرحمن لم يكن حازمًا في رده على زوجته. ترى ما الذي غيَّرهم؛ هل بدر مني ما دفعهم إلى ذلك؟ قد يكون هناك من حرَّضهم عليَّ".

- بعد قليل سوف نصل.

قال الرجل، كأنما يدعو مالك إلى التوقف عن سرحانه، أو ربما أراد بذلك أن يدفعه إلى حديث ما.

التفت مالك إلى الرجل وقد اعتدل في مقعده.

- كيف تحب أن أناديك يا عم؟

مرّت لحظات قبل أن يجيب.

omelkandil.com

- سوف نتحدث في الأسماء لاحقًا. نادني حيدر. النَّاس هنا يعرفونني بهذا الاسم.

- هل تعني أنَّ لك اسمًا آخر؟

- قلتُ سوف نتحدث عن الأسماء لاحقًا.

- سوف أفعل يا عم حيدر، اعذرني.

- لا بأس، بعد الانتهاء من العرس هناك الكثير مما يجب الحديث عنه، فلا تتعجل الأمور.

- اعذرني، لم أقصد ذلك...

لزم كل منهما الصمت، ولم يعد يسمع غير دبيب العجلات على الطريق الوعر، وقد كان ذلك إيذانًا بانعطاف السيارة ودخولها في طريق ترابي، فيما بدت من بعيد بحيرة صغيرة، تحف بها أشجار الحور والجوز وبساتين الفاكهة، وليس بعيدًا عنها بيت كبير، بلونه الأصفر، وقرميده الأخضر. توقفت السيارة عند بوابة كبيرة، وتقدم رجل نحوها، فيما انطلق العم حيدر بسيارته، بينما وقف الرجل عند طرف البوابة يحيّيه، وعلى بعد أمتار من البوابة، حيث تنعطف الطريق نحو بيت صغير في زاوية الأرض، تحيط به الأشجار من كل جانب، وتبدو عليه العناية والاهتمام، توقف العم حيدر، وقد بدا عليه التجهّم والعبوس. نزل من

obeikandi.com

السيارة دون أن يقول شيئًا، كأنَّه غير راغب بما يفعل. انتظر مالك قليلاً، ثم قرر أن يلحق به، وقد رآه يترنّح في مشيته، مترددًا في الدخول إلى البيت. لحق به، فيما كان العم حيدر واقفًا وسط البيت، يجول بنظره أنحاءه، متوقفًا عند كل زاوية منه. حدَّق طويلاً بأحد الأبواب المغلقة. تقدم مالك بحذر شديد. كان العم حيدر يقف سارحًا كأنما يخشى الدخول إلى الغرفة المغلقة، بينما مالك ينقّل نظره بين باب الغرفة، والعم حيدر، محاولاً اكتشاف ما وراء الباب المغلق...

"لا بد من سر وراء هذا الباب". قال مالك محدثًا نفسه، وتقدم نحو الرجل. انتفض حين أحس به كأنما نسيه، أو ربما كان مستغرقًا في سرّه، ولم يرغب في أن يكشف أمره أحد.

نظر مالك إليه، فتظاهر حيدر بالنظر إلى الجهة الأخرى، لكن مالك رأى وجهه، وقد امتلأت عيناه بالدموع.

- يا عم حيدر.. مهما يكن سر هذه الغرفة، فدموعك لن تغيّر شيئًا. اسألني أنا؛ لقد بكيت حتى جفت دموعي، ولم يغيّر بكائي شيئًا من واقع الأمر. نحن يا والدي لا نملك من أمرنا غير القبول بما كُتِبَ لنا.

نظر العم حيدر إلى مالك، وقد اغرورقت عيناه. لف ذراعيه حول مالك كأنما أراد أن يُخفي عينيه، لكنَّ الحزن عصره، لقد حركت "يا

obeikandi.com

والدي" ما كان ساكنًا فيه. حضن مالكًا، وألقى برأسه على كتفه، فيما وقف مالك مذهولاً لا يدري كيف يتصرف، وقد فاجأه ضعف العم حيدر، واستسلامه. أمسك بيده مؤْثرًا مغادرة المكان، والابتعاد عن سبب توتره.

– هيَّا بنا نفرغ السيارة من حمولتها. أمامنا عمل كثير، ولا وقت لدينا، فالعرس على الأبواب.

– أليشير.. اجمع العمال والخادمات في الصالة الكبيرة. أرغب في مخاطبتهم والتحدث إليهم.

– انطلق مالك نحو السيارة. فتح بابها الخلفي وعاد إلى العم حيدر. أمسك بيده واصطحبه إلى السيارة.

– تعلمت مبادئ السواقة، وسوف نذهب إلى البيت.

– أليشير.. أنا هنا وحدي. لا سند لي ولا معين، فهل تعدني بأن تكون عونًا لي لإتمام هذا الفرح؟

– أنا مثلك، لا أهل لي. أعدك بأن أكون ابنك. تأمرني فأطيع.

نظر مالك في المرآة، فرأى الدمع يفرَّ من عيني العم حيدر.

– يا والدي.. أرجوك، لا تجعل الحزن يغلبك، واترك الفرح يدخل إلى قلبك، وأعدك بأنَّ ابنتك ستكون أختي، وسأهتم بها وبفرحها.

- أنت فتى طيب يا أليشير، ويبدو أنَّ الله عوضني بك خيرًا...

وصلا إلى نهاية الطريق حيث الساحة الكبيرة، وعلى حافتها بيت كبير، وأقرب إلى قصر مؤلف من طابقين. ترجّل مالك مادًّا يده إلى العم حيدر، يساعده على النزول من السيارة فيما بدأ العاملون يتقاطرون على الساحة. نظر العم حيدر إليهم، ودعاهم إلى الدخول، حيث يفضي المدخل إلى صالة كبيرة، على أطرافها مقاعد خشبية من خشب الجوز، وفي الوسط "بحيرة" صغيرة تتوسطها نافورة يخرج الماء منها على شكل زهرة اللوتس، وقد زينت جدران الصالة لوحات كبيرة لمناظر طبيعية، وبحيرات وأنهار وجبال، وفي زاوية الصالة خزانة خشبية واجهتها من زجاج مزدحمة بأواني الكريستال. تقدم مالك لمساعدة العم حيدر في الجلوس على مقعده، فيما وقف الجميع بانتظار حديث العم حيدر.

- السلام عليكم جميعًا. أود في البداية أن أشكركم على جهودكم وتعبكم، وقبل أن أواصل حديثي، أود أن أقدم لكم أليشير، هذا الفتى سيكون مرافقي ومعاوني، وسوف يكون صلة الوصل بيني وبينكم، فأرجو أن تعينوه على القيام بمهامه، وتعاونوه في عمله. تعلمون أنَّ عرس ابنتي بعد ثلاثة أيام. آمل أن نقوم بذلك على أحسن وجه، وحتى نحقق ما نتمناه، لا بد من تعاوننا، وعملنا المشترك.

oheikandil.com

بدأ الهمس واللمز في الصالة، ما أغضب العم حيدر، ودفعه إلى رفع يده طالبًا منهم التزام الصمت.

- أعرف أنكم تسألون عن أليشير، من هو؟ ومن أين جاء؟ وإن كان أحد رآه من قبل أو سمع به؟

صمت العم حيدر وهو ينظر إليهم واحدًا تلو الآخر، ثم واصل حديثه وقد بدا عليه الغضب:

- أليشير بمثابة ابني، وهو المسؤول الأول هنا، ومن لم يعجبه ذلك يمكنه مغادرة المكان، والتوقف عن العمل.

ساد الصالة صمت مريب، ثم أكمل وقد بدا عليه الانفعال:

- بقاء أي منكم يعني قبوله بالعمل مع أليشير والتعاون معه، وعليه ليتقدم كل واحد منكم ويقدم نفسه، ويُعَرف أليشير إلى طبيعة عمله...

كانوا سبعة رجال وثلاث نساء، راحوا يتقدمون واحدًا تلو الآخر، يسلمون على أليشير، ويقدمون أنفسهم شارحين له طبيعة عملهم.

كانت "مندورة" آخرهم، سيدة عجوز في الستين من عمرها، حين وقع نظر مالك عليها، أسرع نحوها، قبَّل كتفها، فيما راح العم حيدر يقدمها:

- هذه مندورة، تقيم معنا في البيت وتعتني بزوجتي...

كاد يسأل عن زوجته وابنته، لكنَّه آثر تأجيل ذلك، إذ لديه الكثير من الأسئلة المؤجلة، ولا داعي للعجلة.

شكر العم حيدر عمّاله، وطلب إليهم الانصراف، لكنه كان متوترًا وعصبي المزاج. انسحب الجميع، وهم ما زالوا مشدودين إلى حديث العم حيدر، حائرين في فهم التغير المفاجئ الذي جرى اليوم، وسر هذا الفتى الغريب، الذي انقض عليهم وحاز ثقة العم حيدر.

نهض مالك مستأذنًا بالانصراف، لكنَّ حيدر دعاه إلى الجلوس.

- قلتَ إنَّ أناهيد أختك وسوف ترعاها وتعتني بها.

- نعم.. أعدك بأنها ستكون كذلك.

- إذًا.. انتظر حتى تتعرّف إلى أختك.

كانت أناهيد تقف على رأس الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي، حيث غرف النوم وصالات المعيشة، تنتظر إيعازًا من والدها. هبطت الدرج عند سماعها والدها يناديها. تقدمت حييّة وقد رأت غريبًا مع والدها، لكنها واصلت طريقها حين سمعته يدعوها.

- هذا يا ابنتي أخوكِ أليشير، وأظن أنَّ له اسمًا آخر غير أليشير. لا بأس، سوف نعرفه لاحقًا. يمكنك الاعتماد عليه. اطلبي منه ما تشائين. سوف يقيم في صالة بيت أخيك تيمور.

نظرت إليه وقد بدا عليها الاستغراب والانزعاج...

- نعم.. في بيت تيمور. لن يدخل غرفة نومه. سوف ينام على "الصوفة" في الصالة، حتى نتدبر أمر إقامته.

بدا عليها الارتياح قليلاً، فقد عزَّ عليها أن ينام أحد في غرفة أخيها.. أما أن ينام في الصالة، فأمر مختلف وأقل إيذاءً لمشاعرها.

كان مالك يتابع الحوار بين حيدر وابنته، وقد أدرك سر البيت الذي دخله مع حيدر عند وصولهم وما جرى هناك.

اقتربت أناهيد من والدها. قبَّلت يده، ورفعت يدها مودعةً مالك، صاعدةً الدرج نحو الطابق العلوي، حيث كانت قبل قليل.

- هذا مفتاح البيت الذي ستقضي فيه أيامك القليلة القادمة. لا تدخل الغرفة. استعمل كل ما في البيت عدا غرفة نوم تيمور.

- هل لي أن أسألك عن تيمور؟

- سوف نتحدث عن ذلك. دعنا ننهي أمر العرس أولاً.

- حسن، كما تشاء...

- يمكنك الانصراف، ولا أريد أن تنشغل بشيء عدا العرس.

غادر مالك، ولا شيء يشغله غير مراسم العرس، فقد رأى في ذلك تحديًّا يجب أن ينجزه على خير وجه، فعلى نجاحه تتوقف أمور كثيرة.

openkandil.com

توجه إلى بيته الجديد. صعد الدرجات الثلاث، لكنه لم يدخل. مدَّ يده نحو الباب وكاد يفتحه، لكنَّ إحساسًا بالرهبة منعه ودفعه إلى التوجه نحو فرندة صغيرة تطل على البحيرة، تتدلى من أطرافها أغصان دالية تسلقت البيت، وطالت حتى كادت تغطي البيت الصغير كله، وقد بدا أنَّ أحدهم يبالغ في الاعتناء بها. تقدم نحو مقعد خشبي وقع نظره عليه، وجلس مُطلقًا العنان لعينيه تسبح في البحيرة، وتغوص في أعماقها، لعلَّ فيها ما يريحه، ويجيب على أسئلة عديدة تدور في ذهنه ولا تجد جوابًا.

أسند ظهره إلى مقعده، وأطلق العنان لعينيه تحلَّق في الفضاء الممتد بعيدًا، حيث تبدو أطراف القرى، تطل على البحيرة الصغيرة، وعلى بحيرات صغيرة أخرى تنتشر في المنطقة، وتزدحم شواطئها بخيام الصيادين وعرائش الباحثين عن فرصة الاستمتاع بمياه حلوة، وتبدو من بعيد خيوط الدخان المتصاعدة من مواقد الشواء، أو كما يسميه الأوزبك "الششليك". أحس بالجوع يقرص معدته، فتذكر أنَّه لم يتناول غداءه، ربما نسي العم حيدر وعده له في سمرقند بأنهم سيأكلون في البيت. ما أن نظر إلى ساعته، حتى سمع صوتًا نسائيًّا يقتحم خلوته معتذرًا:

- تأخّرنا في الغداء. الساعة الرابعة. لقد سبقناك في الأكل، فنحن نتناول غداءنا باكرًا. اعذرنا هذه المرة.

- لا بأس يا...

- عزيزة.. اسمي عزيزة. نادني إذا احتجت شيئًا. سوف أملأ البرّاد بالماء وبعض الفواكه. أنا مسؤولة المطبخ، وأُطعم أهل البيت كلهم، حتى السيدة "روحانا"، أنا المسؤولة عن تحضير طعامها الخاص.

قرر مالك تجاهل ما قالته وعدم سؤالها عن السيدة روحانا مَن تكون؟ ولماذا طعامها خاص؟ أخذ ما أحضرت من طعام، ووضعه على طاولة صغيرة أمامه.

- رحمات.. عزيزة. شكرًا يا عزيزة. إذا احتجت شيئًا سأطلبه منكِ.

إذًا، في البيت سيدة مريضة، إنها زوجة العم حيدر، ربما أقعدها حزنها على ابنها تيمور. قريبًا سوف أعرف أسرار هذا البيت. لا داعي للعجلة..

قال ذلك محدّثًا نفسه، ومدَّ يده إلى الطعام يلتهمه. كان العنب لا يزال"حصرمًا"، وقطوف الدالية تتدلى من كل جانب. مدَّ يده إلى حبة اعتقد أنها سبقت غيرها ونضجت قبل أوانها، لكنه تراجع حين وضعها في فمه، وقد أدرك أنَّ أوانها لم يحن بعد. كل شيء في أوانه، فما عليك إلا الانتظار.

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل السابع

كان مالك منشغلاً تلك الليلة في متابعة الحفل، وقد قطع وعدًا للعم حيدر، بأن يكون كل شيء على ما يرام، وبأنَّ فرح أناهيد سوف يتم كما يتمنى.

كان الوقت مساءً، وقد بدأ المدعوون يتوافدون. جلس العمّ حيدر وقد أحسَّ بالتعب، وكانت أناهيد وعريسها صعدا الدرج لوداع أمها، فهما سيغادران فور انتهاء مراسم العرس. امتلأ وجه روحانا بالدموع، ربما حزنًا على حالها، وعجزها عن الوقوف إلى جانب ابنتها في يوم فرحها، أكثر من أي شيء آخر، كانت تحرك عينيها، وتهز شفتيها، أو ربما اهتزت شفتاها وهي تحاول أن تلهج بالدعاء لها، ومباركتها، وحين

obeikandl.com

عجزت عن السيطرة على حركتهما، فرَّت الدموع من عقالها واستسلمت الأم لعجزها، عندها آثر العريس أن يأخذ عروسه مبتعدًا بها عن أمّها قبل أن يزداد الأمر سوءًا، فيما ألقت أناهيد رأسها على كتف عريسها، فلم يكن أمامه غير اصطحابها بعيدًا عن أمها.

غادرت أناهيد وقد أجهشت بالبكاء. بعد ذلك بوقت قصير، جاءت المربية عزيزة وأشارت إلى مالك وأخبرته وهي تبكي بأنَّ روحانا أسلمت الروح. أخذها جانبًا، وطلب إليها عدم إشاعة الخبر، إلى أن ينتهي الفرح، كما طلب إليها التزام الهدوء، وإغلاق باب غرفتها، وعدم إبداء أي تصرف قد يوحي بشيء.

كان الوقت لا يزال بعيدًا للانتهاء من الفرح. طلب من كبير العمال عظمات، أن يبدأ بتقديم العشاء للضيوف، وحين لاحظ أنَّ عزيزة لا تزال تبكي، وأنها ستفضح الأمر، طلب إليها أن تصعد إلى الأعلى، وأن لا تغادر الطابق العلوي.

استمر العرس حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة، وحين بدأ الضيوف بالمغادرة كان حيدر منهكًا، عندها تقدم مالك وأخذه إلى غرفة مكتبه في الطابق الأرضي، وطلب إليه أن يقضي ليلته هناك، بحجة أنَّ السيدة روحانا استسلمت للنوم، ولا داعي لإزعاجها، وحين عاد إليه بعد أن

غادر الجميع ولم يبق في البيت غير الخدم والعمال، وجده يغط في نومٍ عميق، ألقى عليه غطاءً خفيفًا، وتركه لأحلامه، أو ربما لكوابيسه التي كان واثقًا بأنها سترافقه تلك الليلة، وتوجه إلى العمال يطلب منهم عدم مغادرتهم قبل تنظيف البيت، وإعادة كل شيء إلى ما كان عليه، على أن يحضر الجميع إلى بيته، ولم يخبر أحدًا بموت روحانا.

انقضى الليل، وبعض ساعات من اليوم الجديد. تجمع العاملون جميعًا عدا عزيزة التي لم تغادر مقعدها، أمام غرفة السيدة روحانا، جلس الجميع بانتظار مالك الذي وقف أمامهم، فيما بدأ الجميع يتساءلون عن سر اجتماعهم، وما يخبئه السيد مالك.. همس أحدهم:

- ربما سيعطينا مكافأة على جهودنا.

- أولاً أشكركم على ما فعلتموه اليوم، وسوف يشكركم السيد حيدر بنفسه، ولكن ليس اليوم، فهناك ما يستدعي تأجيل ذلك، فقد توفيت السيدة روحانا أمس ولا أحد يعلم بذلك إلا السيدة عزيزة وأنا، أما السيد حيدر، فلا علم له بشيء. سوف نقوم بمراسم الدفن بعد الظهر. أرجو أن يكون الجميع هنا، سوف نكون بحاجة لكل واحد منكم.

انسحب الجميع واحدًا تلو الآخر، وهم في غاية الذهول، فيما عاد مالك إلى البيت الكبير، حيث حيدر وعزيزة التي لزمت مكانها تحرس

جثمان روحانا، توجه إلى المكتب، وحين تأكد من استغراق حيدر في النوم، صعد الدرج إلى الأعلى حيث عزيزة لا تزال أمام غرفة روحانا، وقد بدا عليها التعب، فكفّت عن البكاء، أو ربما لم تعد تقوى على ذلك، فاستسلمت للنوم، حتى أنها لم تسمع خطوات مالك، هبط الدرج ثانيةً، ليجد حيدر واقفًا بالباب وقد بدا عليه التعب، ردَّ التحية، وقد همَّ بصعود الدرج نحو غرفة روحانا، لكنَّ مالك أسرع نحوه، طالبًا منه الانتظار، فلديه ما يقوله. عاد حيدر إلى مكتبه فيما تبعه مالك.

- يا والدي.. أنت رجل مؤمن، وتدرك أننا لا نملك إلا الاستسلام لأقدارنا.

أدرك حيدر أنَّ جللاً وقع، فاستعجل مالك، يحثّه على قول ما يسعى إلى قوله...

- البارحة مساءً، وبعد أن غادرت أناهيد غرفة أمّها، استسلمت السيدة روحانا، ويبدو أنها لم تستطع تحمل عجزها عن وداع ابنتها كما يجب وكما تحب، وقد أخفيت خبر وفاتها عنك وعن الجميع، إلى حين الانتهاء من الفرح، ومغادرة العروسين.

كاد حيدر يسقط على الأرض لولا أنَّ مالكًا أمسك به، وأجلسه على كنبة قريبة. قلت لي قبل أيام، ما قاله الشاعر الطاجيكي"روداكي":

- صعب علينا أن نجد أصدقاء حقيقيين، والأصعب من ذلك أن نفقدهم إلى الأبد". كانت روحانا رفيقة دربك وصديقتك قبل أن تكون زوجتك، وها هي ترحل بعد معاناة طويلة. ادع لها بالرحمة، فقد ارتاحت. أعرف أنَّ الفراق صعب، لكنها الحياة، ويجب أن نتقبل حلوها ومرها.

- عشرون عامًا مضت، لم أرَ غير مرارة الحياة وقسوتها، وها هي تأخذ آخر أشيائي الجميلة، لم يبق لي ما يدفعني إلى التعلق بها. لماذا تقسو الحياة عليَّ هكذا؟ ماذا فعلت حتى تفعل بي كل ما تفعله؟ أنا لم أكن سيئًا، ولم أفعل ما يغضب الله، لم أسئ لأحد، فلماذا يعاقبني الله بهذه القسوة؟

- ارحمْ نفسك يا والدي، واطلب الرحمة للسيدة روحانا، فإنها بحاجة إلى دعائك ورضاك.

كانت الدموع تهبط من مقلتيه فتملأ صفحة وجهه، كأنما يبكي حاله، وقد تساقطت أوراقه، وغرقت مخطوطاته ونصوصه في النهر، وبقي وحيدًا، يعصره الألم والحزن، عاجزًا عن فعل شيء، أيّ شيء.

- سوف نقوم بمراسم الدفن بعد ظهر اليوم، فهل عندك ما تقوله؟ سأل مالك.

– أنت فتى شجاع، ورجل حكيم يا بني، لولاك، كان الأمر أصعب مما هو عليه.

قال حيدر، دون أن يرفع رأسه، متحاشيًا النظر إلى مالك.

انتهت مراسم الدفن والعزاء، لكنَّ الحزن ظلَّ مخيمًا على البيت أشهرًا، حيث لم يغادره حيدر.

وكما انتهت مراسم الدفن والعزاء، انتهت مراسم الفرح والعرس، وغادرت أناهيد دون أن تدري بموت أمها. غادر العروسان إلى طشقند، وسيقيمان هناك أربعة أيام، يغادران بعدها إلى موسكو، حيث يقيم العريس، ويعمل في شركة للنفط والغاز. العريس من أوزبكستان، لكنه يحمل جواز سفر روسيًّا، وقد أصرَّ على الزواج من فتاة أوزبكية، كعادة معظم الأوزبيك؛ يمرحون مع فتيات روسيات، لكنهم إذا قرروا الزواج والارتباط الجديّ، فإنهم يعودون إلى أصولهم، ويرتبطون بفتيات أوزبكيات، حيث يضمنون عذريتهن، لذا فإنَّ معظم الزيجات تتم في عمر مبكر، لا يتجاوز العشرين عامًا، فإن تجاوزت العشرين أصبحت عانسًا، وتراجعت فرص زواجها، وقد كانت أناهيد محظوظة بعريسها، حيث على العروس أن تقيم شهرًا عند أهل عريسها، تبدأ بخدمتهم في الصباح، ولا يجوز أن يقوم أهل العريس بأي عمل في البيت من طبخ

وتنظيف وغسيل، حتى الدرج ومدخل البيت، ويجب القيام بذلك وهي مرتدية الزي الأوزبكي التقليدي، وبعد شهر على الأقل، يسمح للعروسين أن يغادرا إلى بيتهما.

لزم العمّ حيدر البيت ولم يغادره، متحاشيًا العمال والضيوف، فيما انشغل مالك في متابعة العمل يساعده في ذلك "عظمات" كبير الموظفين ومساعده الأول. كان عظمات هذا أوزبكيًّا من أصول طاجيكية، يعيش مع أسرته في بلدة صغيرة تدعى "بختكور"، على يسار الطريق المؤدي إلى طشقند، يزور عائلته مرة في نهاية كل أسبوع، وقد بدأ العمل مع العمّ حيدر قبل عشرين عامًا، وهو في غاية الإخلاص والحرص على تنفيذ تعليمات معلمه حيدر، وحاز ثقته، حتى بات يعتمد عليه، ويطلق العنان لمبادراته في العمل، ولم يرد له طلبًا.

قرر مالك توطيد علاقته بعظمات، ومواصلة الاعتماد عليه، وكسب صداقته، وطمأنته أنَّ شيئًا من وضعه لن يتغير، حتى أنَّه حين زوج ابنته في "بختكور"، رافقه أيام العرس، وصرف له مبلغًا من المال لزوم مصاريف الفرح، إضافةً إلى خمسة رؤوس من الماشية وعجل، واشترى له كيسًا من الأرز لزوم الوليمة التي قدمها للحضور، ولم يفارقه أيام التحضير لحفلة العرس، أمّا بقية العمال فقد حرص مالك على توطيد

obeikandi.com

علاقته بهم، يسألهم عن أحوالهم، فإن كانوا بحاجة لأية مساعدة، لا يتردد في تلبيتها، فيما كان العمّ حيدر يراقب ذلك دون أن يتدخل في أمورهم، وحين كان مالك يسأله عن أمر ما، كان يسمع منه جوابًا واحدًا: أنت المسؤول هنا فتصرّف، وافعل ما تراه صحيحًا... كذا... يسمع مالك رد العمّ حيدر فيزداد ثقة بنفسه، ويكبر التحدي والإصرار على قبوله، إلى أن جاء يوم دخل على حيدر، وهو جالس يتفيأ تحت عريشة وقد وضع قدميه في الماء المنساب عبر "الأريك" وهي قناة من الباطون، تجري المياه فيها طول الصيف قادمة من البحيرة القريبة دون انقطاع، تلتف حول "العزبة"، وتنحدر نحو الأرض المزروعة فترويها، وما زاد منها يعود ليصب في البحيرة ثانية. كان حيدر يحدق في الماء ينساب رقراقًا، لا شيء يعكّر انسيابه وجريانه نحو أشجار الفواكه والخضروات الممتدة بعيدًا تطل على البحيرة، كأنها تحرسها وتعطيها الأمان.

اقترب مالك من العم حيدر، الذي انتفض حين أحس بأحدهم، رفع رأسه ودعاه للجلوس.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.. تعال اجلسْ..

obeikandi.com

- الحزن لا يعيد أحبتنا، هكذا علمتني الحياة يا والدي.

- في مدينة "بانجكنت" الطاجيكية، والقريبة من سمرقند من جهة طاجكستان، عاش في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر شاعر طاجيكي اسمه"روداكي" قال في إحدى قصائده:

"صعب علينا أن نجد أصدقاء حقيقيين، وأصعب من ذلك، أن نودّعهم إلى الأبد."

ساد صمت لكنه لم يطل، فقد واصل حيدر حديثه:

- قبل عشرين عامًا، فقدت ابني تيمور، حين خرج من مصحة في موسكو ولم يعد، وقد وجدت في ابنتي أناهيد عزاءً وسلوى، ولم يخطر لي أنها ستغادر ذات يوم مع عريسها، لتبدأ حياتها الجديدة بعيدًا عني. كنت مسؤولاً عن دوريات الأمن ومكافحة المخدرات في مدينة "بانجكنت" الطاجيكية، كان ذلك في زمن الاتحاد السوفييتي، حيث لم تكن هناك حدود بين هذه الدول، التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفييتي، حتى العام (1991م). في السنوات الأخيرة، كانت الفوضى عارمة، وتعمّ أطراف الدولة السوفييتية، أمّا طاجكستان، فكانت ممرًّا للمخدرات من أفغانستان، وكنت مسؤولاً عن منع دخول تلك المخدرات إلى الأراضي الطاجكية، وتسللها إلى الشمال نحو موسكو وأوروبا الشرقية. ذات يوم

وصلتني إشارة، أفادت أنَّ عملية التسليم سوف تتم في قرية "البستان" على بعد عشرين كيلومترًا شمال مدينة "خوجاند" الطاجيكية، فذهبت مع قوة من خمسة رجال، ونصبنا كمينًا عند مداخل"البستان". انتظرنا حتى الصباح، لكنَّ أحدًا لم يأتِ، فطلبت من رجالي الانسحاب، ومغادرة المكان، وكنت آخر المغادرين، وحين عدت إلى البيت، استقبلتني زوجتي بالبكاء وكانت في حالة صعبة، حيث افترشت الأرض أمام البيت تشدّ شعرها، وتلقي بالتراب على رأسها ووجهها. أدركت أنَّ مكروهًا أصاب أحد الأولاد، وحين سمعت بكاء أناهيد وهي في حضن عزيزة، وكان عمرها أشهرًا ليس إلا، أدركت أنَّ مكروهًا وقع لتيمور. نظرت إلى زوجتي.. حاولت أن أساعدها للوقوف على قدميها، لكنها لم تستجب لمحاولتي، فحملتها على كتفي وهي شبه غائبة عن الوعي وصعدت بها إلى غرفة نومنا، أوصيت عزيزة بعدم الابتعاد عنها إلى حين عودتي، وانطلقت لإحضار طبيب من عيادة قريبة، وحين عاينها الطبيب، خرج مكفهرًا عابس الوجه، وهو يخبرني بأنها تعرضت لصدمة قوية، أصابتها بشلل دماغي، بقيتُ لسنوات منشغلاً برعايتها، أحملها من طبيب لآخر، ومن مستشفى إلى علاج طبيعي، إلى علاج بالأعشاب... لم أترك بابًا إلا وطرقته. أخذتها إلى موسكو، لكنها لم تتحسن، لا شيء فيها يتحرك غير

عينيها اللتين لم أعد أحتمل النظر إليهما، كأنها تقول لي بأنني المسؤول عن ضياع ولدها، لا أدري، ربما أنا كذلك.

أجهش بالبكاء قبل أن يواصل حديثه...

- بعد أيام، جاءتني عزيزة وبيدها حقيبة ورسالة، تقول: الزم بيتك أسبوعًا ولا تتدخل بأيّ أمر، وسوف تكون هذه الحقيبة بما فيها لك، وإلا سوف لن ترى ابنك ثانيةً كانت الحقيبة ملأى بالدولارات، مئات الآلاف. أغلقت الحقيبة وركنتها جانبًا. مضى على الحادثة شهر، وربما أكثر، حين وجدت تيمور ملقى على الأرض في حال صعبة. حملته إلى المشفى، وبقي هناك أيامًا إلى أن استعاد صحته. عدت به إلى البيت وقد اتخذت قرارًا بأنَّ أترك عملي وأرحل عن المدينة. كان الإتحاد السوفييتي وقتئذ يتفكك وينهار، والفوضى تعم البلدان جميعها. كنت أعرف هذه المنطقة وقد أحببتها. أخذت قطعة الأرض هذه من الدولة وأقمت عليها هذا البيت، واعتزلت أيّ عمل سوى الزراعة وتربية الماشية، أما الحقيبة فلم يكن هناك من أعيدها إليه، وقد أقنعت نفسي بأحقيتي بها.

- وأين تيمور؟ سأل مالك.

أخذ حيدر نفسًا عميقًا، ثمَّ تنهد وأكمل:

onelkandil.com

– أصر تيمور على بناء هذا البيت الصغير قرب البحيرة، وكان يقضي فيه أوقاتًا طويلة، إلى أن كان يوم، كنت قريبًا من بيته، نظرت من النافذة لأتحقق من وجود أحد فيه، فهالني ما رأيت، كان تيمور يحضّر المخدر استعدادًا لتناوله! جنّ جنوني، فأسرعت إليه، لكنه كان سبقني وتناولها، وما أن رآني حتى انفلت بالضحك وهو يتمايل محاولاً التشبث وعدم السقوط، وراح يدعوني إلى الانضمام إليه، ومشاركته بهجته، وانشراحه. كدت أهوي عليه بقبضتي لولا أنَّه سبقني وألقى برأسه على كتفي وراح يبكي. أخذته إليَّ، شددت عليه ورحت أبكي، حتى أنه دفعني وهو يسألني: ما بك؟ لماذا تبكي؟ تمالكت، وقد أدركت أنني أمام مصيبة أخرى. عزيزة هذه سيدة فاضلة، لقد وقفت إلى جانبي سنوات طويلة، ولم تفارق "روحانا" طوال عشرين سنة، أما عظمات فقد كان يعمل معي في "بانجكنت"، وأصر على مرافقتي أينما ذهبت. إنَّه رجل طيب ومخلص.

– وماذا فعلت بتيمور؟ سأل مالك، وقد انتظر العمّ حيدر طويلاً.

– أرسلته إلى طشقند للعلاج، لكنهم نصحوني أن آخذه إلى موسكو. اتصلت بزملائي القدامى، فنصحوني بمصحّة يعرفون أطباءها، وليتني لم آخذه. كنت أزوره مرّة في الشهر، وذات يوم جئت أسأل عنه، فأخبروني

أنَّه هرب من المصحة ولم يعثروا عليه. جنّ جنوني. بحثت عنه في كل مكان، في أقسام الشرطة، والمستشفيات، في المصانع، وورش البناء، لم أعثر عليه...

أخذ نفسًا طويلاً، ثُمَّ واصل حديثه:

- كان ذلك منذ عشرين عامًا، بعد أيام سيكمل الأربعين لو كان بيننا.

نظر إلى مالك والحزن يملؤه وسأله:

- هل تعتقد أنه لا يزال حيًّا؟

- يا والدي.. نحن نتمنى أن يكون حيًّا. أدع له بالخير، فإن كان حيًّا سوف ينفعه الدعاء، وإلا فالصبر خير ما نتمناه.

- هل تعلم يا أليشير...

ضاق ذرعًا باسمه، فقرر الاعتراف وقص روايته، وقد أحسَّ بأن الوقت أصبح مناسبًا لذلك...

- يا والدي.. أرجو أن تعذرني وتسامحني، فقد أخفيت عنك اسمي الحقيقي. أنا لست أليشير.. أنا مالك، فتى من بغداد، جاء هاربًا من الموت، حاملاً حلمه الجديد، ملقيًا بالماضي وما يحمله وراء ظهره...

راح مالك يروي للعم حيدر روايته.. مسترسلاً في شرح تفاصيل رحلته من بغداد إلى سمرقند وحيدر مشدود إلى الفتى، منصتٌ له، وكلما

obeikandl.com

أوغل في حديثه، ازداد إعجابًا به وبشجاعته، لكنَّ حديث مالك عن ثريا استوقفه، فسأله:

- أما زلت تحبها؟

- نعم يا والدي، في كل ليلة حين أضع رأسي على المخدة. استحضرها. أضمها إليَّ، وحين أصحو في الصباح أقبّلها، لكنني أدرك بعد حين، أنني وحدي هنا، وثريا بعيدة عني هناك، وأنني ما قبّلت غير المخدة. أنهض من نومي، ولا شيء في رأسي غير صورتها، واقفة أمامي، تلومني على رحيلي من دون علمها.

- لا تلم نفسك ولا تقرّعها، فقد فعلت الصواب.

- حاولت نسيانها وطيّ صفحة الماضي، لكنني لم أستطع. أتمنى لقاءها لعلها تسامحني.

- إن كان لك نصيب فيها، فهي لك، ولن تكون لغيرك.

أحس مالك بارتياح شديد، مثلما بدا على حيدر أيضًا، فكلاهما أفرغ ما لديه لصاحبه، ما جعلهما أكثر قربًا، فنحن نعطي أسرارنا لمن نثق بهم ونحبهم، وها هو حيدر يضع كل أسرار حياته بين يدي مالك، ومثله فعل مالك.

oheikandl.com

- وجدت بعض المخطوطات القديمة، والمكتوبة باليد، وبلغة عربية، وقد دفعني فضولي إلى قراءة بعضها، فأرجو أن تعذرني.

- وماذا وجدت فيها؟

- معظمها في الأدب والشعر، وأخبار الشعراء وقصصهم. قرأت حكايات عمر الخيام، لكنَّ البغدادي أبا علي بن زريق وحكايته شدتني أكثر من غيرها، ربما حملت حكايته بعض ملامح حكايتي، فقد رحل عن بغداد مخلّفًا وراءه حبيبته بعد أن ضاقت به الدنيا، وأصابته الفاقة وضيق العيش، فرحل من بغداد إلى الأندلس، ولم يستجب لنداء ابنة عمّه وتشبثها به، ولم ينصت لها، وقصد الأمير أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي، غير أنَّ هذا لم يحسن وفادته فقال قصيدته:

"لا تعذليه فإنَّ العذل يولعه

قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعهُ"

تنهدَّ، وقد أغمض عينيه، كأنما يستحضر وجهًا ضاعت منه بعض ملامحه، وأكمل:

"أستودع الله في بغداد لي قمرًا

بالكرخ من فلك الأزرار مطلعهُ"

- كان معلّمي في مدرسة المأمون يحب هذه القصيدة، ويردّدها على مسامعنا. أحببنا حكاية ابن زريق البغدادي، وحفظنا قصيدته التي لم نعرف غيرها له، لكني أحببت ابن زريق وقصيدته أكثر بعد رحيلي عن بغداد.

كان مالك يروي حكاية ابن زريق وحبيبته التي استودعها في بغداد بحرقة وألم، كأنما يتحدث عن نفسه، وعن حبيبته ثريا التي استودعها في سمرقند. تنهد ثم سكت، لكن حيدر، وقد عزَّ عليه حال مالك، أكمل كأنما يواسيه ويبعده عن حزنه الذي كاد يغرق فيه:

- أليس هو القائل في القصيدة نفسها:

"قد وزع الله بين الخلق رزقهم

لم يخلق الله مـن خلقٍ يضيّعهُ"

- كيف عرفت ذلك يا والدي، وأين تعلمت العربية؟

- كان تيمور يحب هذه القصيدة، وسيرة ابن زريق أكثر من أي قصيدة أخرى، على الرغم من حبه لشعر عمر الخيام، ونظامي، ومختوم، وغيرهم من شعرائنا، لكنه أحب شعراء بغداد وبلاد الشام، ويعود الفضل في ذلك لمعلمه في "خوجاند" أبي عبد الله محمد الحلبي، فقد علَّمه اللغة العربية، وحبَّبه بشعراء العرب، وبعد أن رحل قرأت القصيدة

مرّات ومرات، حتى حفظتها غيبًا. أحببتها مثلما أحبَّها تيمور، أما العربية فقد تعلَّمتها من القرآن الذي ساعدني كثيرًا. أحببتها منذ طفولتي، لكنني اليوم نسيت كثيرًا منها، والسبب قلة استعمالها.

كان مالك يتحاشى الحديث عن تيمور، ويحاول ما استطاع إبعاده عن كل ما يُذَكّره بابنه، لكنه أحس برغبته في مواصلة الحديث، مستمتعًا وراغبًا بالمزيد، فهي المرة الأولى التي يتبادل فيها الحديث مع حيدر، وقد استمتع بالمنحى الذي اختاره، لكنَّ انعطاف الحديث باتجاه تيمور، دفع مالك إلى البحث عن مهرب، والابتعاد عن الخوض في ذلك من جديد. بدا حيدر في حال جيدة، ومزاج حسن. خطرت لمالك فكرة الخروج في نزهة قصيرة بعيدًا عن البيت، وخروجًا على المألوف.

- كان والدي يأخذنا إلى نهر دجلة. ننزع ملابسنا ونركض نحو النهر. كنَّا نحب السباحة عراة، لكن والدي كان يمنعنا، فنسبح بسراويلنا الداخلية، فيما كان يبحث عن قصبة طويلة، يختارها بعناية، يخرج من جيبه خيط نايلون، يربط صنَّارة بطرفها، ويبحث في الأرض عن دودة أرض في الطمي المنتشر على حافة النهر. يلتقط واحدة. يثبتها في طرف الصنارة، ويلقي بها بعيدًا في النهر. كنَّا نقضي ساعات طويلة، نستمتع ونعود بسمك يكفي لنا وللجيران. ما رأيك يا والدي لو فعلناها؟ انظر

obeikandi.com

إلى "البوص" يمتد داخل البحيرة، ولا بد أنَّ هذا الجانب منها غني بالسمك.

– في بيت تيمور، هناك عدة للصيد، اذهب وأحضرها، وسوف ألحق بك، ربما أكلنا اليوم سمكًا بفضلك.

– نعم.. يمكنك الاعتماد عليَّ.

انطلق مالك نحو بيت تيمور، وقد غمره إحساس بالانتصار. لقد تحقق ما كان يسعى إليه. ها هو حيدر يخطو أولى خطواته نحو الانعتاق من محبسه، الذي ظل رهينة له لسنوات، لم يحاول الخروج منه، ربما اعتبر ذلك خيانة لعائلته التي حمَّل نفسه وزر ما حدث لهم، فلو كان غض النظر عن عصابة المهربين لانقضى الأمر، وأنقذ زوجته روحانا وابنه تيمور. كانوا سعداء في "بانجكنت" حيث كان يقيم مع عائلته، يقضي نهاية الأسبوع، وحتى الإجازات الطويلة في مزرعته على شاطئ بحيرة "اسكندر كول" شرق مدينة "خوجاند". كان تيمور يحب السمك، الذي كان يصطاده من البحيرة، لكنَّه وزوجته روحانا كانا يحبان "المرطوب"، وهي أكلة طاجيكية من لحم وخبز ولبن مطبوخ... كل ذلك أصبح جزءًا من الماضي، منذ عشرين عامًا تغير كل شيء، حتى المكان لم يعد المكان ذاته، كأنها لعنة تلاحقه، وتأبى أن تغادره.

obeikandl.com

كاد يستسلم لهواجسه وذكرياته، لولا أنَّ أحد العمال اقتحم عليه خلوته، وراح يلح بسؤاله إن كان يريد أن يشرب شيئًا. أفاق حيدر من شروده، وتذكّر مالكًا، الذي سبقه إلى البحيرة، فتبعه.

- هذه البحيرة غنية بأسماك "السوداك"، التي تعيش في المياه الحلوة، لكنَّ النَّاس يصطادون في الجانب الآخر من البحيرة، حيث لا يرتاد الشواطئ غير أهل القرية.

- انظر.. لقد اصطدت ما يكفي لغدائنا جميعًا.

نظر حيدر إلى مالك، ومسحة من الحزن لا تزال تنتشر على قسمات وجهه حتى أصبحت جزءًا من شخصيته، انعكست على سحنته وتقاطيع وجهه، وانتقلت إلى سلوكه العام، وتعبيرات تصرّفاته وحديثه. كان الحزن باديًا عليه. يحاول إخفاءه. ينجح بعض الوقت، لكنه لا يلبث أن يعود إلى طبيعته وما فعله اليوم، خروجًا على المألوف الذي كان يتحاشاه منذ رحيل تيمور وغيابه الطويل.

اصطاد مالك ما يكفي. أكل الجميع وفرحوا بما تحقق من انقلاب، وتغيير لم يعهدوه من قبل، وقد بدت معالم ذلك واضحة في معاملة حيدر للعمال والخدم، حتى أنه كان يتسلل ليلاً إلى مهاجعهم، ويقضي ساعات طويلة، يستمع إليهم، ويحدّثهم وهم فرحون به وبحياتهم الجديدة.

obeikandi.com

ذات يوم، وكان العم حيدر في مزاج جيد. اقترح مالك عليه، ما جعله سعيدًا. جمع العمال والموظفين وراح يشرح لهم ما اقترحه مالك:

- أنتم تعرفون أنَّ لا أحد هنا إلاي، فقد رحلت السيدة روحانا، وأناهيد مع زوجها في موسكو، وقد جاوزت السبعين، وأنتم أهلي ولا أحد لي غيركم، وقد بعث الله لي ابنًا عوضني عن تيمور، فمنذ أن جاءنا مالك، تغيرت أحوالنا، وأصبحت أمورنا على خير ما يرام، واليوم جاءني مالك باقتراح قبلته، وأكبرت فيه تلك الشهامة، فقد أعطاني الله من المال والثروة ما يكفي ويزيد، وقد قررت أن أقبل اقتراح مالك، وأُعطي مما أعطاني الله. إنكم تعيشون وعائلاتكم في القرى البعيدة، ولا شك في أنَّ ذلك صعب عليكم وعلى عوائلكم وعلى عملكم أيضًا. لقد اقترح مالك أن نبني لكل من يرغب بيتًا على قطعة من أرضنا، إذا قبلتم سوف لا نكلف أحدًا شيئًا من تكاليف البناء. ستكون البيوت لكم، ما دمتم تعملون معنا، ولعائلاتكم بعد عمرٍ طويل... فما رأيكم؟

حدَّق الجميع بالعم حيدر، كأنهم في حلم. قال عظمات، وقد قرأ ردود فعل الجميع على وجوههم وألسنتهم:

- نحن نعمل في خدمتك منذ سنوات طويلة. عشنا معك حلو الحياة ومرّها، ولو كنَّا نملك أن نقدّم أكثر ما تأخرنا. لقد ربطنا حياتنا بك

وبعائلتك، ولن نكون أكثر سعادة من البقاء معك حتى آخر العمر. نشكرك، ونشكر الأخ مالك، الذي أحببناه منذ حلَّ في ديارنا.

اتفق الجميع على قطعة الأرض، ليس بعيدًا عن بيت تيمور، وقرروا استشارة مهندس، وتكليفه، على أن يتولى "عظمات" متابعة الأمر حتى إنجازه.

بدأت العلاقة تأخذ طابعًا آخر، ومنحى جديدًا، لم يعهده حيدر من قبل، وقد عبَّر عن ارتياحه، وزاد تعلّقه بالفتى، ويومًا بعد يوم، تعمقت علاقتهما، وتعززت ثقته به، فلم يعد متحفظًا في حديثه، ولم يترك سرًّا في حياته إلا وباح به، كأنه وجد من يبوح له بما خفي من حياته.

كان مالك يحب الشعر والشعراء منذ كان في مدرسة المأمون، فراح ينبش في ذاكرته، ويحيي ما كان نسيه، وحيدر منصت إليه، مستمتع بحديث مالك الذي لم يكن يعرف شعراء آسيا الوسطى، لكنَّه انشدَّ إلى أخبارهم، ووجد في بعض هذه الأخبار والسير ما يشبه أخبار وسير شعراء العرب؛ علي شير نفييه، بابور، نظامي، دولت محمد آزادي، عمر الخيَّام، وغيرهم. رأى في هؤلاء أبا العلاء المعري، وبشار بن برد، وأبا تمام حتى شعراء الصعاليك مثل الشنفرى وغيرهم. الشعراء متشابهون وإن اختلفت لغاتهم، أما العمّ حيدر، فقد كان يقف بين هؤلاء الشعراء، مثل

كتاب قديم، ونص يهرب من صاحبه باحثًا عن لغة مشتركة تبعثرت حروفها، فلم يعد يحسن جمعها، حتى أصبحت مثل حروف متقاطعة عليه أن يجهد كي يجمعها، أو يعيدها إلى ما كانت عليه. كان حيدر يبدو ضائعًا متهالكًا مثل نص في مخطوط قديم، تكسرت حروفه، وتداخلت، وأصبحت باهتة تشبِه حال الشاعر التركماني "مختوم كولي 1733-1797"، بعد أن تعثر بعيره ووقع في نهر "إترك" شمال غرب إيران، وكان على ظهره كلُّ ما كتبه من شعر ونثر، مات الجمل بعد أن غرق في النهر وابتلع النهر كل ما كتب، وضاع كل شيء، وقف الشاعر يومها على ضفة النهر عاجزًا، وقال محدّقًا في النهر يبتلع أوراقه، ويسحب ناقته بعيدًا: "ها أنا أقف حزينًا عاريًا، يملؤني الحزن والغيظ على ضياع مخطوطاتي".

كان حيدر يحب الشاعر التركماني الصوفي مختوم كولي هذا، ويحب شعره، كان يرى نفسه في شعره، وحتى في سيرة حياته، فقد بدا حيدر زاهدًا في الدنيا، غير راغب في شيء، مثلما عاش مختوم كولي، متصوفًا مرتحلاً من بلد لآخر بعد حادثة الجمل، وسقوطه في النهر، وضياع مخطوطاته. ما حدث للشاعر كولي، حدث للعم حيدر، فهو أيضًا تناثرت أوراقه، وها هو يقف عاجزًا، تتقاذفه الحياة، لا يملك من أمره شيئًا، ولا

يدري على أي شاطئ سوف تحطّ رحالها، ربما سوف يبتلعها النهر، وتستقر في زاوية بعيدة، هناك في الأعماق.

كانت الأيام تمضي مثل سابقاتها، في رتابة تبدو كئيبة، وفق نظام غير مكتوب، وإن كان للبيوت أسرارها، فقد دخلها مالك، وانفتحت أمامه الأبواب المغلقة كلها، والنص الذي كاد فهمه يستعصي عليه، بات منفتحًا وواضحًا، وقد بدا كأنه استعاد أوراقه المبعثرة، ومخطوطاته التي غمرها نهر "إترك"، يوم زلت قدم ناقته، وغرقت في النهر.

أحس حيدر بالحياة تعود إليه. استسلم لواقعه، لكنه بدا أكثر فهمًا واستيعابًا له. لم ينس زوجته روحانا، التي رحلت بعد عشرين عامًا عاشتها معلقة بين الحياة والموت حتى رحلت، أما ابنه تيمور، الذي أخذه قبل عشرين عامًا واستودعه مصحة لعلاجه من الإدمان في ضواحي موسكو، وحين عاد إليه بعد ذلك بأشهر لم يجده، هرب تيمور، ولم يعثر عليه، وها هي ابنته أناهيد تتزوج، وترحل مع زوجها لتعيش هناك، ولم يرها منذ سنوات، لكنه تحدث إليها بالهاتف وأخبرته أنها رزقت بطفل أسمته تيمور، بكى يومها، لكنه اليوم يبتسم لحفيده من بعيد ويفكر بزيارته، "ربما يشبِه خاله. لا بد أن أراه. يجب أن أذهب إلى موسكو، فقد تأخرت، كان عليَّ أن أذهب قبل سنوات".

- لم يكن ذلك ممكنًا.

- أعرف يا بني، أما الآن، فلم يعد هناك ما يمنعني، سوف أسافر يا مالك، ولكن سوف أذهب إلى سمرقند غدًا، وسوف تذهب معي، لا بد من إنجاز بعض الأمور قبل سفري.

obeikandl.com

الفصل الثامن

مضت ثلاث سنوات على مغادرته سمرقند، لكنَّه لا يزال يذكر الطريق إليها، ويحفظ تفاصيلها، تعرّجاتها، والقرى المنتشرة على جانبي الطريق، وأشجار "التشينار" الكبيرة الممتدة على طول الطريق، التي تتعرى في الشتاء وتبدّل أوراقها، ها هي الطريق ذاتها، كأنَّه مرَّ بالأمس من هنا، مغادرًا بيت الحاج عبد الرحمن، دون أن يودعهم، لكنَّه استودع ثريا قلبَه المكسور، من يومها لم تغب سمرقند عن باله، ولا غابت ثريا عن ناظريه. هل أخطأ في رحيله؟ ربما سأل نفسه السؤال ذاته آلاف المرات، في لحظات ضعف وانكسار، لكنَّه لا يلبث أن يتراجع وقد انتصبت مليكة أمامه تشكك في نواياه. يبتسم بمرارة وألم، مقتنعًا بما فعل، مؤثرًا العضَّ

obeikandl.com

على جراحه، وطيّ صفحة الماضي، لكنَّ طيف ثريا ظلَّ يلاحقه، في صحوه ومنامه. أفاق على صوت حيدر يدعوه إلى التوجه نحو مرصد "ألوغ بيك"وسط المدينة.

- "ألوغ بيك" هذا، هو حفيد الأمير تيمور. كان شاعرًا وعالمًا، غير أنَّ أهم مآثره، ذلك المرصد الذي يعتبر اليوم من أهم الآثار العلمية، حيث لا تزال أبحاثه واكتشافاته الفلكية في قياس أبعاد النجوم والأقمار، تدرّس وتعتمد في أهم جامعات العالم، وهو الذي بنى راغستان وسط سمرقند حيث سنتوجه الآن، لقد كان بازارًا كبيرًا في الأيام الغابرة.

كان القلق باديًا على وجه مالك، كلما اقتربا من "راغستان"، فيما راح حيدر يواصل شرحه لتاريخ الأماكن التي تنتشر على جانبي الطريق إلى وسط المدينة، وقد بدا كأنما يحدث نفسه، فقد تظاهر مالك بالإنصات إليه، وكأنَّه لا يعرف هذه الأماكن وقد جاءها مرات ومرات.

- لقد اتخذ الأمير تيمور مستشارًا له عربيًّا من مكّة في بلاد الحجاز اسمه سعيد بركة، واستقدم عددًا كبيرًا من العلماء، بل من خيرة العلماء إلى سمرقند كما أحضر إلى عاصمته أشهر البنائين من أصفهان وأذربيجان ودمشق وبغداد، وما هذه الأبنية التي تراها إلا بعض أثارهم، التي نقلوها إلى سمرقند متأثّرين بفنون العمارة في بلادهم.

أشار حيدر إلى مالك بالتوقف، طالبًا منه انتظاره، وعدم مغادرة السيارة إلى حين عودته. غادر حيدر السيارة، حاملاً معه حقيبة صغيرة، فيما كانت عينا مالك تتعقبانه، لعله يكتشف أمر هذه الزيارة، وما يكتنفها من غموض.

وقعت عينا مالك على يافطة معلقة على مدخل البناية، تشير إلى مكتب الكاتب العدل "النتاريوس". لم يفهم شيئًا، وقبل أن يغرق في أفكاره وتخميناته، رأى حيدر يشير إليه بيده.

أسرع مالك إلى حيدر، وقبل أن يصطحبه إلى المكتب قال:

- بني.. افعلْ ما يطلبه منك الكاتب العدل، ولا تناقشه في أي أمر.

ظل مالك حائرًا لا يجد تفسيرًا لما يجري. تبع حيدر دون أن يبدي ردَّ فعلٍ، لكنه بدا تائهًا لا يملك من أمره شيئًا سوى الانصياع لأوامر حيدر، وتنفيذ ما يطلبه منه. وقف حيدر أمام الكاتب العدل، مشيرًا بيده إلى مالك:

- هذا هو الرجل الذي أريد أن أوكله بكل ما أملك في هذا البلد...

قال حيدر، فيما كان الكاتب العدل يسأل مالك إن كان يوافق على ذلك.

تردد مالك قبل أن يجيب، لكنَّ حيدر لم يمهله طويلاً، فنهره قائلاً:

- لا بدَّ أنَّه لم يفهم سؤال جنابك.

فراح حيدر يشرح سؤال الكاتب العدل مخاطبًا مالك بعصبية:

- بنيّ.. جناب "النتاريوس" يسألك إن كنت توافق على توكيلي لك بكل ما أملك في أوزبكستان؟

التفت مالك إلى حيدر وقد ازداد توترًا وحيرة وتوهانًا. حاول أن يتماسك، ويستعيد وعيه وتوازنه. نظر إلى حيدر، ثمَّ إلى "النتاريوس"، وقال مستدركًا:

- نعم.. نعم.. أنا موافق...

- عليك إذًا التوقيع على عدد من الأوراق والوثائق.

انفرجت أسارير حيدر، وعلت شفتيه ابتسامة حزينة، واغرورقت عيناه حتى كاد يبكي. انتهى من التوقيع على الأوراق، وغادر مع حيدر وقد بدت له الأمور أكثر وضوحًا.

- ما الذي فعلته؟ سأل مالك العم حيدر.

لكنَّ حيدر نظر إليه كأنما يقرَّعه على سؤاله.

- سوف تفهم لاحقًا. بقي أمر لا بدَّ من إنجازه قبل عودتنا إلى البيت؛ هناك مقهى قريب "شاي خانه"، عند زاوية الشارع المؤدي إلى "ضريح النبي دانيال"، انتظرني هناك، إلى أن أعود.

- ألا تحتاجني؟ سأل مالك...

- بلى، أحتاجك. لا تغادر "الشاي خانه"، وحين أعود، سأخبرك بما أحتاجه. قف هنا، هذا هو المقهى، سأعود إليك بعد ساعة، فلا تغادر المقهى قبل عودتي لأي سبب كان.

نزل مالك من السيارة، فيما جلس حيدر خلف المقود مبتعدًا، تاركًا مالك في حيرة. دخل إلى "الشاي خانه"، وبعد أن تفقّد المكان، توجّه نحو زاوية المقهى، وجلس بانتظار الصبي. طلب إبريقًا من الشاي الأخضر "تشاينك"، وراح يتصفّح وجوه الزبائن، الذين كانوا ينظرون إليه ويتهامسون، حتى ارتفعت أصوات بعضهم: إنَّه غريب لم نره هنا من قبل، ربما هو أفغاني، أو ربما طاجيكي.. اقترب أحدهم:

- السلام عليكم...

- وعليكم السلام.

- يبدو أنك غريب، فهل أنت أفغاني؟

ابتسم مالك، وقد أعجبه فضول الرجل.

- لا.. لست أفغانيًّا...

- طاجيكي؟ إيراني؟ أذربيجاني؟... ربما أنت تركي؟

- لا.. لا.. لم تحزر يا أخي. أنا أوزبكي من بخارى...

- إذًا، أنت غريب.

- لا.. لست غريبًا، فأنا من هذه البلاد، وهذه بطاقة هويتي...

أخرج مالك بطاقة هويته، وراح يلّوح بها، وقد داخله الشك بأنَّ الرجل ربما يكون رجل أمن. تراجع الرجل منسحبًا حين رأى بطاقة الهوية، فيما عاد مالك إلى وحدته، يبحث عن إجابات لتساؤلات كثيرة.

كاد النهار ينتصف في سمرقند، فيما كان مالك ينظر إلى ساعة قديمة ربما كانت من عهد السوفييت. حدَّق بعقاربها، وقد اعتقد أنها لا تدور، لكنه حين نظر إلى ساعته، أدرك أنَّ الوقت يمر بطيئًا، وأن العيب فيه وليس في ساعة الحائط.

خطر له زيارة "بختيار"، وقد أحس بشوق كبير إليه. كاد يغادر المقهى إلى ضريح "النبي دانيال" ربما يجد لديه من أخبار ثريا ما يشفي غليله، ويطفئ ناره، لكنه تراجع حين تذكر وعده لحيدر، بأن لا يغادر المقهى قبل عودته.

كانت عقارب الساعة تشير إلى انتصاف النهار، حين دخل حيدر ومعه رجل لم يتبيّنه للوهلة الأولى، فقد رآه آخر مرَّة قبل ثلاث سنوات، لكنه عرفه، إنه الحاج عبد الرحمن، وقد كان آخر من توقع رؤيته في سمرقند. تماسك حين أحسَّ برجليه لا تقويان على حمل، وتقدم من

Obeikandl.com

الحاج عبد الرحمن مصرًّا على تقبيل يده، معتذرًا على ما بدر منه، معللاً مغادرته وهروبه سرًّا، شارحًا مبررات ذلك.

- لا بأس يا بني.. لقد شرح لي أخي حيدر كل شيء. هيّا.. خطيبتك بانتظارك، فلا تجعلها تنتظر أكثر مما انتظرت.

نظر مالك إلى حيدر، كأنما يطلب منه توضيحًا.

- نعم.. شرحت للحاج عبد الرحمن كل شيء، وطلبت لك ثريا، فهل تطيع والدك، أم أنَّ لك رأيًا آخر؟

ابتسم مالك، وهو يعانق حيدر، ويخفي دموعه التي انفلتت من عقالها، فيما دفعه حيدر إلى عمّه الحاج عبد الرحمن. تعانقا، فيما كان زبائن "الشاي خانه" يتقاطرون للسلام على الحاج عبد الرحمن والعم حيدر، محاولين فهم ما يجري. أفاق مالك من المفاجأة. توجه إلى السيارة، حين سمع الحاج عبد الرحمن يسأله:

- أما زلت تذكر الطريق إلى بيتنا، أم أدلّك عليها؟

- ما زلت أحفظها غيبًا، ولم تغب عن بالي لحظة.

بدأت دقات قلبه تعلو وتتسارع، بعد قليل سيلتقيها. ثلاث سنوات من الفراق، حافلة بالأحداث، قلَبتْ حياته رأسًا على عقب، لكنَّ حلمه الدفين نهض من جديد، بعد أن ألقى به في زاوية بعيدة، أو هكذا اعتقد.

يبدو أنَّ بعض الأحلام كالأرواح لا تموت، ربما تتراجع لتكمن في زوايانا، أو تنتقل من مكان لآخر لتعود ثانية، بشكل مختلف، كأنما تعلقت روحه بحلمه الذي التقاه ذات يوم في الموصل، وتبعه إلى سمرقند، حلمه الذي كابد من أجله، وكاد يلمسه، لكنه طار من بين يديه. أحس بأنَّه يحط ثانية، ويعود إليه مبتسمًا، فاردًا جناحيه. ظل مالك صامتًا، فيما واصل الحاج عبد الرحمن وحيدر حديثهما. أمسك بالمقود بيديه وقد أحس بالسيارة تكاد تخرج عن السيطرة، حين أبطأ أمام البوابة قبل أن يتعرف الحارس إليهم. لحظات، انطلق إلى الساحة التي يعرفها جيدًا، إنها الساحة ذاتها، لم تتغيّر منذ غادرها فجر ذلك اليوم قبل ثلاث سنوات، كل شيء على حاله. أوقف السيارة جانبًا فيما ترجَّل الحاج عبد الرحمن مرحبًا بضيفيه...

أحس مالك بقلبه لا يكل ولا يهدأ، يجول في صدره، يكاد يفر من بين ضلوعه، فيما العرق ينزّ من جسده، مبللاً ملابسه، كأنه المطر القادم من غيم يغطي السماء مزهوًا بشتاء يحمل الثلج إلى قمم الجبال القريبة من سمرقند، فيصفو لونها، وتبيضّ أعاليها.

تقدم الحاج عبد الرحمن ضيفيه متوجهًا إلى الصالة الكبيرة ذاتها، التي شهدت حديث مليكه قبل رحيله. جلس ثلاثتهم، فيما استأذن الحاج عبد

الرحمن، وعاد بعد قليل مصطحبًا مليكة، ثم تبعتها ثريا، بينما تقدم مالك مصرًّا على تقبيل يد حماته، ثم مد يده مصافحًا ثريا.

خيم الصمت، وتوقف الحاج عبد الرحمن وضيفه حيدر عن الكلام، وراحا يرقبان ثريا ومالك، فيما راحت مليكة تشير بيدها إلى مالك بالجلوس، لكنه لا يزال مرتبكًا، يبحث عن شيء ما، أيّ شيء يخرجه مما هو فيه، يعيد إليه صحوه، ويجمع شتات أفكاره، وقد لاحظ الحاج عبد الرحمن حال مالك، فقرر التدخل. نظر إلى مالك وقال:

– ألا تريد رؤية غرفتك؟

– بلى يا عماه، هل لي أن أذهب بصحبة ثريا؟

– بالطبع يا بني.. إنها خطيبتك.

انطلق مالك نحو غرفته التي غادرها قبل ثلاث سنوات، دون أن يلتفت إلى مليكة، وتحاشيًا لاعتراضها، أو تعليقها، وتبعته ثريا...

خطوات قليلة، وعشر درجات تفصله عن غرفته، إنه يحفظها، وصورتها لم تفارقه، خمس درجات تفضي إلى مصطبة صغيرة، ثم ينعطف الدرج نحو خمس درجات أخرى.

وقف مالك أمام الباب منتظرًا وصول ثريا. مدَّ يده متذرعًا بمساعدتها. مدت يدها فقبّلها. حاولت سحب يدها وقد تدفق الدم إلى

وجهها، فاحمرّت وجنتاها، واستدارت تنظر حولها، كأنما خشيت أن تراهما مليكة.

- ما بك؟ أنت خطيبتي، ولا أحد سيمنعني من فعل ذلك...

- لماذا رحلت هكذا دون أن تعلمني؟

- ثريا.. لقد أحببتك، وتعلمين كم عانيت للوصول إليك، لكنني حين سمعت والدتك في ذلك اليوم، لم يكن أمامي غير الرحيل. لقد كانت محقّة فيما قالت، ومن كان مثلي لا يقبل الأذى لمن يحب. كان عليَّ أن أرحل قبل أن يؤذيك حبي.

- إن كنت تحبني، فلماذا لم تسألني؟

- أيًّا كان رأيك، لن يغير شيئًا، وسيزيد الأمر سوءًا. كان على أحدنا أن يبادر، ورحيلي كان أهون الشرّين، وأقل ضررًا، وفي النهاية نحن لا نختار أقدارنا، بل هي التي تلاحقنا، فإن عثرت علينا لا نجد مهربًا منها. راودني شعور بالضياع حين رحلت فجر ذلك اليوم، حتى أنني رغبت في العودة إلى بغداد، وفكرت في ذلك ليالي طويلة وعديدة، لكن دافع البقاء قريبًا منك كان أقوى، ضيّعتك ذات يوم، وأعدك أن لا أفعلها ثانية.

- ومن قال لك إنني سأسمح لك بذلك؟

- حبّك كان جمرًا ظننت البعد سوف يخمده، لكنني كنت أستحضرك كل ساعة. كنت أراك في كل شيء جميل، فيشتعل الجمر في داخلي من جديد، لم تنطفئ نارك يومًا، ولا خبا لهيبها. كنت واثقًا من أنَّ دعواتك سترافقني أينما ذهبت، منذ أن رأيتك في الموصل عند ضريح دانيال، استودعتك قلبي، فأخذته ورحلت إلى سمرقند، لم أحتمل رحيلك، فتبعت قلبي، ضيعتك مرَّة، ولن أحتمل ضياعك مرتين...

- لو لم تعد، كنت انتظرتك العمر كله.

أحس برغبة جامحة لضمّها لولا وقع خطوات دفعت كلاً منها إلى الابتعاد قليلاً، فيما كان صوت مليكة يدعوهما إلى الغداء.

تناولا طعام الغداء، وغادرا بعد أن اتفقا على موعد قريب في نهاية الأسبوع لزيارة حيدر في عزبته. كان مالك سعيدًا بما حدث ذلك اليوم، وقد بدا ذلك واضحًا على تقاسيم وجهه وحديثه الذي لم ينقطع طول الطريق، وحين وصلا العزبة، كان حيدر متعبًا، فذهب للنوم، فيما أسرع مالك إلى شرفة إقامته، وراح يقلّب ما جرى في يوم طويل زاخر بالأحداث والمتغيرات، وقد غمره إحساس بأنَّ الأمر لا يعدو مشاهد من حلم تمنّى أن لا يصحو منه.

بدا كل شيء من حوله مختلفًا؛ البحيرة والبيوت المحيطة بها، والأشجار العارية، حتى صوت الضفادع بين البوص المنتشر على حواف المياه الراكدة، لم تعد أصواتها تزعجه. حدق في صفحة الماء حين رأى وجه ثريا يطل عليه مبتسمًا، وانعكاس الشمس الغاربة ينسحب على قسماتها، فتبدو مثل ثوب أوزبكي مطرّز بالألوان كلها. مدَّ يديه مبتسمًا، لكنه أفاق حين ضربت وجهه حبات مطر تساقطت منذرةً بموجة برد وصقيع. دخل إلى الغرفة، وجلس محدقًا في المطر الذي بدأ يشتد. أحكم إغلاق النوافذ حين سمع صفير الريح. فجأة، هدأت الريح، وتوقف المطر، اقترب من النافذة مستطلعًا حالة الطقس، حدّق عبر النافذة، كان الثلج يتساقط بهدوء مثل فراشات تتطاير في فضاء أبيض، وقد اشتد تساقطه، فبدا الضوء المتسلل خجلاً من النافذة المطلّة على البحيرة، جزءًا من ترنيمة ملائكية، أو سرب نوارس بيضاء مهاجرة، أتعبها الرحيل، فحطت رحالها على صفحة البحيرة، قرب شاطئ غادره الحالمون بلحظة دف وسكينة.

أحس رعشة دفعته إلى البحث عن وسيلة تبعث الدفء في جسده المرتعش. التحف بـ"التشابان"، وجلس محدقًا بالثلج، مستسلمًا لخدر تسلل إلى عينيه، وغفا...

obeikandl.com

في الصباح، نهض باكرًا، وراح يبحث عن عظمات، وحين عثر عليه، طلب منه الذهاب إلى المدينة، وأن يحضر لافتة كبيرة مكتوبا عليها "حيدر كشلاك" وتعني بالأوزبكية "عزبة حيدر"، ووضعها عند مدخل العزبة، وأوصاه ألا يخبر أحدًا قبل وضعها.

توقف سقوط الثلج، وأسرعت فلول الغيم نحو الشرق، وانكشفت زرقة السماء، فتسلل الدفء إلى السهل الممتد إلى حضن التلال المطلة على البحيرة. استبشر مالك خيرًا، وقد كان تمنّى صفاء الطقس حتى نهاية الأسبوع، موعد زيارة ثريا وأهلها. تذكر أنَّ عليه مراجعة حيدر للحديث معه عن زيارة الحاج عبد الرحمن وعائلته، والبحث معه في برنامج الزيارة، لكنَّ العم حيدر أجابه كما في كل مرة: " أنت المسؤول هنا، افعل ما تراه مناسبًا، إنهم ضيوفك".

استدعى عظمات وعزيزة، وأعلمهما بالأمر، وطلب منهما الاهتمام بضيوفه وتقديم أفضل ما لديهم. قضى الأيام القليلة المتبقية حتى نهاية الأسبوع منشغلاً، تارة في مجالسة حيدر، وتارة أخرى في مراجعة عظمات وعزيزة، والتأكد من حسن سير التحضيرات.

صباح ذلك اليوم، جاءه عظمات وقد امتطى صهوة جواده الأشهب، طمأن مالك، واستأذنه للقيام بجولة في العزبة ومحيطها، حيث قطعان

البقر والماشية يستعد رعاتها للتوجه إلى المراعي القريبة، على أن يعود قبل ظهر ذلك اليوم.

كان مالك يحب الخيل، لكنه يخشى ركوبها. حدّق في الحصان، وقد كان مطواعًا، وعظمات مزهوًا، يركل أسفل بطنه برجليه، فينطلق الحصان مبتعدًا، فيما عينا مالك تتبعانه حتى غيبته الأشجار.

توجه مالك نحو البيت حيث حيدر، واصطحبه إلى مدخل العزبة متعمدًا. وقف حيدر أمام اللافتة المثبتة على بوابة "العزبة". حدَّق بها، فيما أحس باختناق وهو يقاوم دموعًا غمرت عينيه، فطفرت وسالت على وجنتيه. سحبه إليه معانقًا مختبئًا من عيني مالك، محاولاً الاحتفاظ بتوازنه. قال مالك، وهو الذي يفهمه، ويدرك أحساسه:

- هذه "حيدر كشلاك"، وأعدك أن تكبر وتتسع حتى تصبح "حيدر آباد". إنها اليوم "عزبة حيدر"، لكنها ستصبح يومًا ما "مدينة حيدر".

أحس حيدر بفرح عارم. ربت على كتف مالك، فيما كانت الشمس تبدو متآكلة الأطراف باهتة، كلما مرت بها غيمة، ووجه الأرض لم يجف بعد، فقد بدأ الثلج بالذوبان، وانكشف الأبيض عن الصخور المتناثرة، فبدت أكثر لمعانًا، في انعكاس الضوء، وتغيّرت ألوان الحجارة المتناثرة، بعد اغتسالها، وذوبان الثلج حاملاً معه ما علق من غبار وأتربة وطين.

كانت سيارة الحاج عبد الرحمن تقترب، وقد تبين صوت محركها، وهو الذي يعرفه جيدًا ولم ينسه. تقدم مالك نحو البوابة استعدادًا لاستقبالهم، وقد بدا عليه الاضطراب والقلق. عدَّل من لباسه ووقف قرب اللافتة، كأنما هي حدود مملكته، التي يعتز بها، وتشعره بالأمان. توقفت السيارة. تقدم حيدر، وتبعه مالك، وحرص على ملازمته وعدم الابتعاد عنه. أحس بأنه والده حقًّا. كان مثل طفل يريد أن يرى النَّاس جميعًا، ويتمنى لو أنَّ أحدًا لا يراه. كان الحاج عبد الرحمن أول من نزل من السيارة، وراح يناطح حيدر بطرف رأسه، كعادة الأوزبك في السلام. تقدم مالك. قبَّل يد عمه الحاج عبد الرحمن، وانتقل للسلام على حماته، ثم اقترب من ثريا مادًّا يده مصافحًا. تقدم نحو عمّه مرحبًا، داعيًا الجميع إلى الدخول، فيما تقدمت عزيزة تحمل بيديها صينية من القش، عليها بعض أرغفة من الخبز الأوزبكي، وصحن صغير فيه بعض الملح. دارت على الضيوف وهي تردد على مسامعهم كلمات الترحيب: "خبز وملح" أهلاً وسهلاً. قضم كل منهم قطعة صغيرة غمسها بالملح قبل أن يأكلها، ثم انسحبت عزيزة بما تبقى من الخبز، لكن حيدر استدرك مقاطعًا مالك:

- سوف أصطحب الحاج عبد الرحمن والسيدة مليكة إلى البيت، أما أنت وثريا، فيمكنكما أن تأتيا لاحقًا.

تقدم حيدر، وتبعه الحاج عبد الرحمن، فيما تلكأت مليكة وقد ساءها اقتراح حيدر، ولم تستطع إخفاء عدم رضاها عن ذلك، أما مالك، فقد نظر إلى ثريا بطرف عينيه، ولم يستطع إخفاء فرحه الذي بدا واضحًا على وجهه، وراح يخطط للحظة الاختلاء بثريا بعيدًا عن عيني مليكة.

غادر حيدر مصطحبًا ضيوفه، ومثل طفلين فرحين، التقيا بعيدًا عن الأهل. أمسك مالك بيد ثريا وقد قرر أن يصطحبها إلى البحيرة لاصطياد السمك، واصطياد لحظة حب، يفرغ فيها بعضًا من شجونه وأشواقه الدفينة.

لكنَّ مليكة لم تعطهما من الوقت إلا قليله، فقد هبطت عليهما، فأفسدت خلوتهما، متذرعة بالملل الذي أصابها جراء انشغال زوجها وحيدر في حديث لا شأن لها به، ربما كان ذلك صحيحًا، لكنَّ مليكة لم تكن بحاجة لتبرير تسللها إلى ثريا ومالك وعدم السماح لابنتها بالذهاب بعيدًا عن ناظريها مع مالك، كأنها لم تقبل بعد بهذا الغريب أن يقترن بابنتها، ربما كانت تخشى أن يأخذها بعيدًا، ويعود إلى بغداد.

حمل مالك ما حظي به من صيد، وغادر إلى حيث كان عظمات يطعم النَّار حطبًا كان يحتفظ به في المخزن بعيدًا عن الرطوبة والمطر، حتى يظل جافًّا.

تحلّق الجميع حول الطاولة التي توسطت المصطبة ذاتها تحت العريشة أسفل البيت، تطل على البحيرة من بعيد، فيما تبدو التلال غير البعيدة كأنما تحرس "العزبة"، وساكنيها. أدار حيدر بصره متفقدًا المكان قبل أن يقول:

- ما رأيك يا ثريا في قطعة الأرض، عند أشجار الحور تلك؟

أشار حيدر إلى أرض قريبة من بيت عائلته.

- إنها جميلة يا عم حيدر، وإطلالتها تشرف على "العزبة" والبحيرة، ولكن لماذا تسألني رأيي؟

- لأن رأيك هو الأهم في ذلك.

- لم أفهم...

- ذلك المكان، سيكون موقع بيتكم، أنت ومالك...

نظر إلى مليكة يسألها:

- ما رأي الست مليكة؟

بدا على السيدة مليكة الارتباك، وهي تبحث عن جواب لسؤال حيدر، وقد أنقذها الحاج عبد الرحمن حين وقع نظرها عليه.

- ما رأيك يا حاج؟

- لم يسألني رأيي، وإنما سألك أنت، فلا تهربي من سؤاله.

obeikandi.com

لم تجد مليكة مهربًا، لكنها وقد أصرت على عدم الإجابة، نظرت إلى ثريا، ثم إلى مالك وقالت:

- إنها مسألة تخص ثريا ومالك، وعليهما أن يقرّرا.

ضحك الجميع وقد أدركوا أنَّ مليكة تهرب ثانية، وتتجنب تحمل مسؤولية رأيها، تدخّل حيدر وقد أدرك أن لا مفر من ذلك:

- على أية حال، لم يعترض أحد، وعدم الاعتراض يعني القبول. أقترح أن تكلف مهندسًا للبدء بالبناء فورًا، فأنا مغادر بعد أسبوع لزيارة ابنتي وحفيدي تيمور في موسكو. لا أدري متى سأعود، ربما بعد شهر، أو شهرين، وربما أكثر، وحال عودتي، سنقيم حفل العرس، وسيقيم العروسان في بيتهما الجديد حال الانتهاء من بنائه.

- على بركة الله.

قال الحاج عبد الرحمن موافقًا على حديث حيدر.

انسحب مالك إلى شرفته بعد رحيل ثريا وعائلتها مؤثرًا الاختلاء بنفسه، ومراجعة أحداث ذلك اليوم...

على الجانب الآخر، كان حيدر يجلس وحيدًا في المكان ذاته الذي اعتاد عليه، عريشته التي كان يلجأ إليها، يحتمي في ظلها، ويخلو بنفسه فيها، لم يتغير شكلها منذ سنين طويلة، غير أنَّ الشجر والنباتات المتسلقة، غمرت

العريشة وغطتها تمامًا. جلس حيدر متفقدًا مفكرته. أسند رأسه على مِسند "الطبشان"، وأطلق العنان لناظريه، محدقًا فيما مرّ به وما وصل إليه، لم يعد أيّ ألم يضيف جديدًا لآلامه، فقد أحس بأنه استنفذ كل آلام الدنيا، وليس أمامه غير مداواة ما تبقى من جروحه المثخنة، وترميم أطراف أحلامه النازفة، بالقدر الذي يبقيه حيًّا، وقلب محطم ما زال ينبض متشبثًا بخيط واهن من حياة، أو ربما ما تبقى منها. أحس بأنَّ ما مرَّ به وما رآه أكبر مما يُحتمل. ودَّ لو يقدر أن يزيح غلالة المشهد المتبقي من عمره، ويمضي بسلام، وقد بدا عاجزًا عن إيقاف سيل الصور وتداعياتها في ذاكرته، كلما سدَّ ثغرة في الذاكرة انفتحت أخرى على تفاصيل كان نسيها، أو ظن ذلك، لا تزال تؤرقه، وتشده إلى ماض يطوِّقه، وتلقي به عاريًا وسط ريح تهب عليه من حين لآخر، وتكاد تقتلعه، لكنه ما زال يقاوم، متشبثًا بإحساس يدفعه إلى التعجيل بترميم أحلامه التي تآكلت، قضمتها الريح، فمزقت أوراقه، ولم يبق منها إلا بقايا قليلة، وذكريات تكاد تغرق في المياه الآسنة، ونهر لا يدرك مجراه، ولا أين يمضي؟ اقتحم مالك خلوته.

– تعال، اجلس، سوف أسافر بعد أسبوع، ولا أدري متى سأعود، وقبل أن أغادر، سوف أسلمك مفاتيح البيت والخزنة. تذكّر يا بني، هذه

onelkandil.com

الأرض في عهدتك، إياك أن تفرّط بها، أو تهملها. أنا واثق من ذلك، لكنني أحب هذه "العزبة" بكل ما فيها، كل شجرة، وكل حجر، حتى ماشيتها وعجولها، عزيزة عليَّ.

- لقد وعدتك بأن تظل "عزبة حيدر" مثلما أحببتها.

بعد أسبوع، ودَّع حيدر الجميع، وغادر إلى طشقند، وفي اليوم التالي أوصله مالك إلى المطار، ظل يلوح بيده حتى غاب وسط المغادرين، جلس مالك متهالكًا على مقعد قريب، كان المطار مزدحماً بالمسافرين. لكنه لم يرَ أحدًا، وكأن قاعة المسافرين أقفلت، وغادرها المسافرون والمستقبلون، وحتى الموظفون والعمال، لم يكن هناك أحد، كلهم غادروا، كلهم رحلوا، وحين أفاق على صوت شرطي ينهره، ويطلب إليه المغادرة، التفت صوب القاعة التي غادر حيدر عبرها، وحين لم يجد أحدًا، نهض معتذرًا، وغادر المطار.

بدا الأمر مثل حلم، وحين عاد إلى "العزبة" أحس بثقل في رأسه لم يعهده من قبل. راح ينظر إلى البيت من بعيد، ولا يجرؤ على الاقتراب منه. أحس بأنَّ أهل البيت ما زالوا هناك، أو ربما أرواحهم، تنظر إليه وجوههم مثل تماثيل من حجارة صلدة، جنبات البيت مسكونة بهم، تتحرك أينما نظرت.

obeikandl.com

ابتعد.. لكنه رأى حيدر جالسًا في العريشة ينظر إليه. خطا نحوه، لكنه حين اقترب من العريشة أدرك أن لا أحد هناك. ابتسم بمرارة، لكنه لم يجرؤ على الدخول إليها. عاد أدراجه إلى الشرفة في مهجعه، محدقًا كعادته في البحيرة، تارة يحدث نفسه وتارة يحدث الأسماك فيها، والتي لا يراها، لكنه يدرك أنها تراه، وربما تهمس فيما بينها، وتسأله عن أهل العزبة، رحلوا.. كلهم رحلوا، لم يبق إلاي، أنا الغريب.

هذه البلاد يا بني غزاها الغرباء من كل لون وعرق، كلهم رحلوا، وبقي أهل البلاد، لأن الغرباء وحدهم يرحلون، أما أهل البلاد فلا يرحلون، وإن رحلوا لا يبتعدون عن الديار، يبقون حولها، يدورون كالفراشات لا تفارق المصابيح، وإن ابتعدوا، تسكن أرواحهم في زوايا بيوتهم، أرواحهم تنتقل من جسد لآخر، أما أنا فقد آمنت أنَّ روح ابني تيمور حلت فيك وسكنتك، لا بد أنها كذلك.

ظل حيدر يلاحقه أينما ذهب، كلما همَّ بإعادة تنظيم العمل، أو حتى نقل شيء من مكانه وتغيير موقعه، تذكّر ما كان يردده حيدر: "إذا انتقلت الأشياء من مكانها فسدت"، فقرر الإبقاء على كل شيء في مكانه، أمّا بيت العائلة، فلم يقترب منه، وتجنب الدخول إليه، لكنه أوصى عزيزة أن تواصل عملها، وتعتني بالبيت، حتى مندورة، التي قضت سنين طويلة

في خدمة السيدة روحانا، لم يصرفها مالك، وطلب منها البقاء في العمل، حتى وإن لم يكن لها عمل، فقد ظل يحلم بعودة العمّ حيدر من رحلته إلى موسكو، لكنها كانت تصر على مساعدة عزيزة، وحين انتهى مالك من بيته وتزوج ثريا، تقاسمت العمل مع عزيزة.

ظل مالك يهش كلما سمع صوت سيارة قادمة نحو العزبة، ممنياً النفس بأن العمّ حيدر عاد من رحلته، انتظر، حتى طال انتظاره...

لم يعد العمّ حيدر، كان الطقس ربيعيًّا، والشمس تبعث الدفء في عروق ثريا وقد تعوّدت الجلوس في شرفة تطل على البحيرة، التي أحبها مالك، تجلس هناك منتظرة، يقضيان الليل يقلّبان ما حدث لهما.

– هذا هو منفاي الأخير...

– لماذا لا تقول، مستقرك الأخير...؟!

– لا فرق يا ثريا... لا فرق... كلها غربة...

يقترب منها، يحضنها، يشدَّها إليه، تتأوه بين يديه، محذرّة:

– أسمع دبيبه في بطني، أراه محدّقًا بي، يسألني عنك، ويطلب الرفق به...

اقترب من حضنها، مداعبًا حيدر الصغير، متمنيًا له السعادة في قادم الأيام.